مجلة
الحبر
مجلة علمية دعوية تربوية
تصدر عن مدرسة ابن عباس رضي الله عنهما
مؤسسها الدكتور أمجد أحسن علي رحمه الله
العدد ٣
ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الآخرة ١٤٤٧هـ

الجليس الصالح

لمحات من حياة سماحة الشيخ
سليم الله خان
رحمه الله تعالى

كُن كاتباً ولا تتردّد

مشروع تعريب باكستان

مجد العالم في كتبه

علم العروض
من الرموز إلى التذوق

- كيف أطور لغتي ؟
- نداء العودة إلى مجالس العلم
- غرقت سفينة ونجا "سفينة"

مجلة علمية دعوية تربوية

تصدر عن مدرسة ابن عباس رضي الله عنهما،
مؤسسها الدكتور أمجد أحسن علي رحمه الله

العدد (٣) ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الآخرة ١٤٤٧هـ

المشرف العام

فضيلة الشيخ أبو أحمد عبد المعز بن علي منصور التونسي حفظه الله

اللجنة القائمة على المجلة

الأستاذ أسامة محمود
الأستاذ عامر خالد
الأستاذ محمد شعيب
أ. محمد بن أسلم الصديقي
الأستاذ حذيفة رفيق
الأستاذ حمزة نذير
الأستاذ نصير الله المنصور
الأستاذ عمار عبد الحفيظ
الأستاذ محمد فرقان
الأستاذ محمد عمران

التنسيق والمراسلات

الأستاذ مدثر ياسين

التصفيف والتصميم

الأستاذ خوشحال

alhebr@madrasaibneabbas.com
alhebr.madrasaibneabbas.com
9 2 3 3 1 2 9 4 3 9 6 1

محتويات العدد

كلمة العدد	الجليس الصالح	الشيخ أبو أحمد عبد المعز بن علي منصور حفظه الله	٥
في رحاب القرآن	ورتل القرآن ترتيلا، الحلقة (٣)	الشيخ ظهير أحمد صديقي حفظه الله	٨
اللغة العربية	مشروع تعريب باكستان	الشيخ د. موسى بن عبد الغفار الشهابي حفظه الله	١١
	علم العروض.. من الرموز إلى التذوق	أ. محمد عمران، إسلام آباد	١٤
	كن كاتبا ولا تتردد	أ. نصير الله المنصور	١٦
	كيف أطور لغتي؟	أ. ولي الله الشاهد	١٨
	أمسية مع كلمة عربية (٣): لقاء مع منارة الرشد والإرشاد	أ. محمد شعيب	٢٠
من وحي السيرة	معالم الهدي في سيرة النبي المصطفى ﷺ	أ. حماد بن أحمد علي	٢٢
سير وأعلام	لمحات من حياة سماحة الشيخ سليم الله خان رحمه الله	أ. رب نواز	٢٤
الأخلاق والرقاق	نفحات الروح في خشوع الصلاة	أ.نصيب الرحمن	٢٧
	المؤمن كالغيث	أ. محمد كامران	٣٠
	الأدب عنوان الكمال	أ. أبو الفاتح حمزة نذير	٣١
التربية والتعليم	مجد العالم في كتبه	أ. عمار عبد الحفيظ	٣٤
	نداء العودة إلى مجالس العلم	أ. محمد سعد	٣٦
	إلى الطلاب	الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله	٣٨
قصة وعبرة	نور في الطريق..	أ. أبو سالم الأنصاري	٤٠
	غرقت سفينة ونجا «سفينة»	أ. حذيفة رفيق	٤٢

ما ينشر في المجلة يعبر عن آراء كاتبيها، ولا يعكس بالضرورة رأي المجلة

الجليس الصالح

الشيخ أبو أحمد عبد المعز بن علي منصور حفظه الله

الحمد لله العلي الأعلى الوهاب القائل: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الكهف: ٨٢] الذي خلقنا وجعلنا شعوبا وخلطاء لنتخذ من بعضنا أصدقاء وخلانا وأصحابا، والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيد الأولين والآخرين، وعلى أصحابه النجباء الأخيارالميامين رضي الله عنهم أجمعين.

أما بعد:

قال الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾ [الفرقان: ٧٢-٩٢]

عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «مثل الجليس الصالح والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا خبيثة»(١).

الصحبة الصالحة رزق من الله في الدنيا والآخرة، وسيف ذو حدين كما قيل: الصاحب ساحب، إما أن يسحبك إلى الخير أو العكس. ومن أهم ما يذكر هو التأثر بعلمه وعمله وأخلاقه عن طريق القدوة، فهي أبلغ من المقال، وفي الحديث: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»(٢). ومنها تبصير جلسائه له بعيوبه وجهات النقص فيه ومواطن العلل عنده، فيعمد إلى معالجتها وإصلاحها، وفي الحديث: «المؤمن مرآة المؤمن»(٣).

الجليس الصالح يحفظك في غيبتك، ويظهر ودك إذا حضرت، يدنيك من ربك، يهديك للخير، يذكرك إذا نسيت، ويحضك إذا غفلت، لا تسمع منه إلا قولًا طيبا ولا ترى منه إلا فعلاً حسنًا، فاختر لدربك ناصحًا مخلصًا في صحبتك، يعينك إذا انثنيت، ويقوي همتك إذا ضعفت، وأكثر من مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب.

(١) أخرجه البخاري

(٢) رواه الترمذي وحسَّنه.

(٣) رواه أبو داود، وحسَّنه العراقي وابن حجر.

قال ابن القيم رحمه الله في «مدارج السالكين»: «مجالسة الصالحين تحولك من ستة إلى ستة:

١ - من الشك إلى اليقين.

٢ - ومن الرياء إلى الإخلاص.

٣ - ومن الغفلة إلى الذكر.

٤ - ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة.

٥ - ومن الكبر إلى التواضع.

٦ - ومن سوء النية إلى النصيحة».

قال عليّ رضي الله عنه: «عليكم بالإخوان، فإنهم عدة في الدنيا والآخرة، ألا تسمع إلى قول أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾» [الشعراء: ١٠٠-١٠١]

قال ذو النون: «بصحبة الصالحين تطيبُ الحياةُ، والخيرُ مجموعٌ في القرين الصالح، إن نسيت ذكَّرك، وإن ذكرت أعانَك».

قيل لذي النون رحمه الله: مَنْ أُجالِس؟ قال: «عليك بمجالسة من يُذكِّرك بالله رؤيته، وتقع هيبتُه على باطنك، ويزيد في عملك منطقه، ويُزهِّدك في الدنيا عملُه، ولا تعصي اللهَ تعالى ما دُمْتَ في قربه، يَعِظُك بلسان فعله، ولا يعِظُك بلسان قوله».

وأفضل نموذج للصحبة صحبة أبي بكر للرسول ﷺ، إذا أردنا أن نصل إلى ما وصل إليه الصديق رضي الله عنه وأرضاه أو إلى جزء منه فعلينا بحب رسول الله ﷺ، فالصدّيق أحب رسولَ الله ﷺ حباً خالط لحمه ودمه وعظامه وروحه، حتى أصبح جزءاً لا يتجزأ من تكوينه، والصحابة جميعاً أحبوا رسول الله ﷺ حباً عظيماً فريداً، ولكن ليس كحب أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فإنه أحبه الحب الذي فاق حب المال والولد والأهل والبلد، بل فاق حب الدنيا جميعاً.

روى البخاري ومسلم رحمهما الله عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين».

فأبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه كان أشد الناس حباً لرسول الله ﷺ، ففي حديث رسول الله ﷺ في مسند الإمام أحمد: «إن أبا بكر وزن بأمة محمد ﷺ فوزن بها» وفي رواية: «إن أبا بكر وضع في كفة وأمتي في كفة فعدلها».

إذاً: هذا الرجل كان أشد الناس إيماناً بعد النبي ﷺ، وهو أشد الناس حباً لرسول الله ﷺ، هذا الحب المتناهي له دليل من كل موقف من مواقف السيرة، ولو تتبعت رحلة الصديق رضي الله عنه وأرضاه مع الرسول الكريم ﷺ لرأيت حباً قلّما يتكرر في التاريخ.

لما جاء رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر الصديق في ساعة لم يكن يأت إليهم فيها كان أول ما قال أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه: «فداء له أبي وأمي، والله! ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر» يعني هناك أمر خطير جاء برسول الله ﷺ في هذه الساعة، فإنه لم يكن ﷺ يأتي الصديق في هذا الوقت في الظهيرة.

ولما أخبره ﷺ بأمر الهجرة قال أبو بكر الصديق بلهفة: الصحبة بأبي أنت وأمي يا رسول الله! فقال صلى الله عليه وسلم: نعم، الصحبة.

فماذا كان رد فعل أبي بكر الصديق لما علم أنه سيصاحب رسول الله ﷺ؟ اسمعوا إلى السيدة عائشة تروي هذا الحدث، جاء في صحيح البخاري عنها رضي الله عنها أنها قالت: «فو الله! ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ» سبحان الله! يبكي من الفرح لصحبة رسول الله ﷺ في أمر الهجرة، مع أن هذه الصحبة الخطيرة قد يكون فيها ضياع النفس، فمكة كلها تطارده ﷺ، وسيكون فيها ضياع المال، وسيكون فيها ضياع

الأهل، وسيكون فيها ترك البلد، لكن ما دام في صحبة رسول الله ﷺ فهذا أمر جعله يبكي من الفرح لأجله.

ومن أفضل ما قيل في الصحبة: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]

قال بعض السلف: «لا تصحب من الناس إلا من يكتُمُ سرَّك، ويستر عيبك، فيكون معك في النوائب، ويُؤثِرك بالرغائب، وينشر حسنتك، ويطوي سيئتك، فإن لم تجده فلا تصحب إلا نفسك».

وقال الشاعر:

إن أخاك الحقَّ من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا رِيبَ زمانٌ صدعك شتَّت فيه شمله ليجمعك

الصديق هو:

أولًا: يحب لك من الخير ما يحب لنفسه.

ثانيًا: يكره لك ما يكره لنفسه.

ثالثًا: يؤثِرك على نفسه ولو كان به خصاصة؛ أي: ولو كان به حاجة وضعف، وفقر وفاقة.

رابعًا: يضر نفسه لينفعك.

خامسًا: يتمنى لو أن بك ضرًّا أو أذًى، لكان به هو ولا يكون بك أنت.

سادسًا: أن يكون يحبك لله وفي الله فقط، لا لمصلحة ولا لحاجة دنيوية.

ومما أُثر عن الإمام الشافعي رحمه الله قال:

أُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَسْتُ منهم لَعَلّي أَنْ أَنَالَ بِهِمْ شَفَاعَة

وأَكْرَهُ مَنْ تِجَارَتُهُ المَعَاصِي وَإِنْ كُنَّا سَوَاءً في البِضَاعَة

رد الإمام أحمد بن حنبل:

تُحِبُّ الصَّالِحِينَ وأَنْتَ مِنْهُم لَعَلّهُم يَنالوا بِكَ الشَفَاعة

وَتَكْرَهُ مَنْ تِجارتهُ المَعَاصِي حَمَاكَ اللهُ مِنْ تِلْكَ البِضَاعَة

الذي يتأمل في كلام هذين العَلَمَين الهُمامين سيكتشف أبعادا ومفاهيم عميقة، تدل على دور الصحبة الصالحة في تربية الناشئة تربية دينية مستقيمة تهديه إلى الرشد، والفوز، والفلاح في الدنيا والآخرة...

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المشرف العام

سماحة الشيخ عبد المعز بن علي منصور التونسي

حفظه الله

الحلقة (3)

ورتل القرآن ترتيلا

الشيخ ظهير أحمد الصديقي حفظه الله

سلسلة علمية مباركة تتناول أحكام تجويد القرآن الكريم، وتصحيح ألفاظه، وإقامة حروفه على الصفة المتلقاة من أئمة القراءة المتصلة بالرسول ﷺ؛ هدفا إلى تمكين القارئ من جودة التلاوة وحسن الأداء، وعصمة لسانه من اللحن عند تلاوة كتاب الله عزوجل.

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على عبده المصطفى، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم وآثارَهم اقتفى. أما بعد؛ فانطلاقًا من قول الله جل في علاه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121] نتابع مسيرتنا في صفات الحروف، وقد سبق في الحلقة الأولى أهمية التجويد وفضائله والمبادئ العشرة التي يقوم عليها، بينما خصصت الحلقة الثانية لبيان مخارج الحروف بإيجاز، مُؤكدةً في مقدمتها على الدور المحوري للمخارج والصفات في حفظ كيفية نزول القرآن.

وفي فاتحة هذه الحلقة لا بد من لفتة إلى فضيلة القارئ الماهر، واهتمام النبي ﷺ بجودة القراءة والتحريض عليها؛ لتحفظ كيفية النزول، فقال ﷺ: «من سره أن يقرأ القرآن غضًا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبدٍ»[1].

وإنَّ أجلَّ غاية تُنفق فيها نفائس الأوقات، وأعظم عبادة تتجلى فيها البركة، هي تعلم كتاب الله وتعليمه، فلقد خصَّ الله أهل القرآن بمنزلة سامية، حيثُ روى سيدنا النبي ﷺ، عن ربه قال: «من شغله القرآن عن ذكري ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»[2].

ويؤكد هذه المنقبة الجليلة ما رواه أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي عن عثمان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[3]، ثم قال أبو عبد الرحمن: وذاك الذي أقعدني مقعدي هذا. وكان معلم الحسن والحسين، ومقرئ جامع الكوفة على مدى ستين عامًا. فيا له من وقعٍ عميق في نفوس السلف الصالح!

ولو أدرك المجوِّد لكتاب الله، الذي اعتنى حقَّ العناية بمخارجه وصفاته، ما أعدَّه الله له من منزلة رفيعة وكرامة عظيمة، لما آثر عليها شيئًا؛ فالقرآن هو أفضل ما يتقرب به العبد إلى خالقه؛ إذ يقول النبي ﷺ: «إنكم لا ترجعون إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه»[4]. ولم يقتصر فضل أهله على القرب فحسب، بل نالوا شرفًا أعظم، فقال ﷺ: «إن لله أهلين من الناس، وإن أهل القرآن أهل الله وخاصته»[5]. بل إن قارئ القرآن يصبح حاملاً لأشرف المعارف وأجلِّها؛ فمن عظيم فضله، قوله ﷺ: «من قرأ القرآن فقد أُدرجت النبوة بين جنبيه، إلا أنه لا يوحى إليه. ومن قرأ القرآن فرأى أن أحدًا من خلق الله أُعطي أفضل مما أُعطي، فقد حقَّر ما عظَّم الله، وعظَّم ما حقَّر الله»[6].

ولقد أكَّد النبي ﷺ على أنَّ مذاهب العرب وطبائعها في أداء كلامها هي الأصل المعتبر في تلاوة القرآن الكريم، إذ

(١) أخرجه أحمد (رقم٣٥) عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم٢٩٢٦) عن أبي سعيد رضي الله عنه، وقال: حسن غريب.

(٣) أخرجه البخاري (رقم٥٠٢٧) عن عثمان رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذي (رقم٢٩١٢) مرسلاً، والحاكم (رقم٢٠٣٩) موصولًا، عن أبي ذر رضي الله عنه، وقال: صحيح الإسناد.

(٥) أخرجه الترمذي (رقم٢١٥) وأحمد (رقم١٣٥٤٢) - واللفظ له - عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٦) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (رقم٧٩٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

قال ﷺ: «اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها»[٧]. فقال أبو عمرو الداني في تفسير هذا التوجيه النبوي: «وهذا الخبر أصلٌ لصحة افتراق طباع أئمة القراءة في الترتيل والتحقيق والحدر والتخفيف، واختلاف مذاهبها فيما تلقته من أئمتها ونقلته عن سلفها، من الهمز وتركه، والمد وقصره، والإمالة والتفخيم، والبيان والإدغام، والروم والإشمام، إلى سائر ما ورد عنها استعماله والأخذ به من المطرد من الأصول والمفترق من الفروع، إذ معنى قول النبي ﷺ بلحون العرب وأصواتها يريد طباعها ومذاهبها»[٨].

والصفة هي السمةُ الجوهريةُ الملازمة للحرف عند خروجه، تكشف سرَّ نبرته وجودته، بينما يكشف المخرج موضعَه ومقدارَه. وإذا كانت المخارج أجسادَ الحروف المادية، فالصفات روحها النابضة؛ وبهما يكتمل تصوّر الحرف أداءً وتمييزًا.

ولا شك أنهما معًا ميزانُ حسنِ النطق، ولبُّ الفَرق بين الأصوات، وسرُّ اختلاف الحروف في السمع، وبالصفات وحدها يصفو اللفظ ويستقيم المبنى وتصحّ القراءة، وتتميز طباع العرب ولحونهم في التلاوة عما سواها، وتتجلى حقيقة الصفة أصفى ما تكون، إذا أُتي بالحرف ساكنًا بعد همزة، ليتجرد من كل عارض وملابسة، ويُبرز جوهره الصوتي بوضوح.

إنَّ العلاقة بين المخارج والصفات علاقة تكامل وغاية في الدقة؛ فالمخارج ميزانٌ تُعرَف به مقادير الحروف وكمياتها، وبمعرفتها نضمن ألا يُزاد في الحرف أو يُنقص، صونًا للتلاوة من اللحن. أما الصفات فناقدٌ بصير يميز جيدَ الأداء من رديئه، فهي تكشف عن كيفية الحرف عند النطق، من حيث السليقة الصحيحة. ومن هنا، كانت صفات الحروف أدقَّ وأغمض على من رام تحصيلها من المخارج؛ لأنها تتعلق بالكيفية التي تحتاج إلى حسٍّ مرهف وضبط متقن.

ولصفات الحروف فوائدُ جليلة، أهمها ثلاث: أولها: تمييزُ المتشابه من الحروف، ولا سيّما ما اتحد مخرجُه؛ فلولا الصفاتُ لتشابهت الأصوات واندثر الفرق بين المتباينات. وثانيها: معرفةُ قويِّ الحرف وضعيفه؛ ليُعلَم ما يجوز إدغامُه وما يمتنع، إذ تُصانُ منزلةُ القويّ ولا تُذهَبُ بالخلط والالتباس. وثالثها، وهو أجلُّها: تحسينُ اللفظ وإتقانُ الأداء؛ فلكل حرفٍ طابعٌ فريد، لا يحسن إلقاؤه إلا بإعطاء صفاته حقَّها ومستحقَّها.

(٧) أخرجه ابن وضاح القرطبي في البدع والنهي عنها (رقم٢٥٤) عن حذيفة رضي الله عنه.

(٨) التحديد في الإتقان والتجويد - لأبي عمرو الداني (ص٨٤).

وقد لخّص ابنُ الجزري هذا المعنى بقوله: «كلُّ حرفٍ يشارك غيره في المخرج فإنه لا يمتاز عنه إلا بالصفات، وكلُّ حرفٍ يشارك غيره في الصفات فإنه لا يمتاز عنه إلا بالمخرج؛ ولولا ذلك لاتحدت أصوات الحروف في السمع، فصارت كأصوات البهائم لا تدل على معنى، ولما تميّزت ذواتُها»[٩].

وتنقسم صفات الحروف إلى ذاتيّة لازمة تلازم الحرف في حالتي الحركة والسكون، فهي حقُّه الذي لا يزول، وإلى عرضيّة طارئة يستحقها الحرف عند اتصاله بغيره. والصفات اللازمة تُقسَّم إلى متضادّة وغير متضادّة. فأمّا المتضادّة، وهي خمس صفات. **فأوّلها** ما يتعلّق بالنَّفَس: **الجهر**: انحباس النفس لقوّة الاعتماد على المخرج، **والهمس**: جريانه لضعف ذلك الاعتماد، وحروفه: (حَثَّهُ شَخْصٌ فَسَكَت)، وحروف الجهر: (عَظُمَ وَزْنُ قَارِئٍ غَضٍّ ذِيْ طَلَبٍ جِدٍّ).

وثانيها ما يتّصل بالصوت نفسه: **الشدّة**: انحباسه لشدّة قوّة الحرف، وحروفها: (أَجِدُكَ قَطَبْتَ)، **والرخاوة**: جريانه لضعفه، وحروفها: (حَظٌّ شَخْصٍ هَزَّ ضِغْثٍ سَفَذَ)، وبين الطرفين منزلةٌ وسطٌ تجمعها حروف (لَنَعْمُرُ) وتسمّى التوسّط.

وثالثها متعلّقٌ بعلوّ أقصى اللسان وانخفاضه: **فالاستعلاء** ارتفاعُ أقصى اللسان إلى الحنك الأعلى، فتقوى نبرة الحرف ويتفخّم صوته، **والاستفال** انخفاضُه إلى قاع الفم، فيرقّ الحرف، وحروف الاستعلاء: (خُصَّ ضَغْطٍ قِظْ)، وما عداها مستفل.

ورابعُها ما يتّصل بتلاقي طائفتي اللسان والحنك الأعلى: **فالإطباق** ارتفاعُهما وتماسُّهما حتى يمتلئ الصوت ويشتدّ، **والانفتاح** انفراجُ ما بينهما، وحروف الإطباق أربعة: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، وما سواها منفتح.

وخامسُها ما يتعلّق بخفّة الحرف وثقله عند الخروج: **فالإصمات** ثِقَلٌ واستمساكٌ ينشأ من قوّة الحرف ومتانة مخرجه، بينما **الإذلاق** خفّةٌ وسرعةٌ تلوح في اللسان أو الشفة لخروج الحرف من طرفهما وضعفِ اعتمادهما. وحروف الإذلاق هي: (فِرَّ مِنْ لُبّ)، وما عداها مصمَتٌ لا خِفّة فيه. ولأجل ثِقَل حروف الإصمات إذا تجردت، لم تُبنَ في العربيّة كلمةٌ رباعيّة أو خماسيّة الأصول إلا وفيها حرفٌ من حروف الإذلاق، ليعتدل بها اللّفظ وتستقيم بنية الكلمة.

وأمّا الصفاتُ غيرُ المتضادّة - وهي سبعٌ - فظهورُها يدور مع حال الحرف بين سكونٍ وحركة؛ فأوضحُ ما تكون

(٩) النشر في القراءات العشر (١/ ٢١٤)، واللفظ هنا ملخص في الميزان في أحكام تجويد القرآن (ص٥٢).

عند السكون، إذ يتهيّأ الصوتُ للانكشاف بلا صارف، ويزدادُ بيانُها في حال الوقف حيث يصفو المخرج من شوائب الحركة. وإذا كان الحرف متحرّكًا رقّ أثرُها ولطف، فكأنها لمسةٌ تمرّ على الصوت مرورًا سريعًا. وأمّا المشدّد فحالُه بين الطرفين؛ تغلب عليه قوّة الحركة، فيقرب صوتُه من الخفاء، وإن بقيت الصفة فيه كامنةً لا تنعدم.

فأوّلُ الصفاتِ غيرِ المتضادّة: **الصفير**. وهو صوتٌ زائدٌ يخرج مع الحرف خروجًا يشبه صفيرَ الطير في رقّته وحدّته. فالصاد تُسمِع صفيرًا قريبًا من نفَسِ الإوزّة أو صوتِ صغار الدجاج، والزاي يُشبه صفيرُها طنينَ النحل، والسين تُرسل نبرةً دقيقة كصوتِ عصفورٍ يصدح في أوّل الفجر.

وثانيها: **القلقلة**؛ وهي نبرةٌ يتولّد معها الصوتُ من اضطرابٍ يقع في المخرج عند النطق بحروف (قُطْبُ جَد). ولولا هذه القلقلةُ لما انطلق الصوت أصلًا، إذ يجتمع في تلك الحروف الجهرُ والشدّةُ فينحبس الصوت، فتأتي القلقلةُ لتفكَّ هذا الانحباس وتُطلق الحرف إطلاقًا واضحًا. وليست القلقلةُ مقصورةً على السكون، غير أنّ ظهورها فيه أتمُّ وأبين، وأشدُّ ما تتجلّى عند الوقف حيث يستقرّ المخرج ويسكن الصوت.

وثالثُها: **اللِّين**؛ ويكون في الواو والياء إذا كان ما قبلَهما مفتوحًا؛ إذ يخرج الحرفان حينئذٍ بمرتبةٍ تتوسّط بين امتداد الألف وجفافِ السكون المجرّد، فيجيئان بسهولةٍ ولينٍ وقِلّةِ كُلْفة، كأنّ الصوت ينقاد لهما انقيادًا بلا مقاومة.

ورابعها: **الانحراف**؛ وهو عدولُ الحرف عن مخرجه وصفته إلى موضع آخر. فمخرج اللام في الأصل: أدنى حافة اللسان مما يلي الضواحك، وصفتها الرخاوة، إلا أنّه ينحرف أحيانًا إلى طرف اللسان، وهو مخرج النون ومنتهى الحافة، فيستوعب جذورَ الضاحك والناب والرباعي والثنية من جهة واحدة، ويميل صوته إلى الشدة فتخرج اللام في هذه الحالة متوسّطة بين الرخاوة والشدة. أما مخرج الراء فهو في أصله كالنون، إلا أنّه أَدخَلُ إلى الحنك بواسطة ظهر اللسان، وصِفةُ التكرير تحرّف صوته قليلًا نحو مخرج اللام.

وخامسها: **التكرير**، وهو ارتعادُ الراء بالقوّة لا بالفعل، فيخرج الحرف بحيث يمكن ترعيده وتكريره. ففي الحركة تظهر شائبة التكرير، وفي السكون يكون التكرير خفيفًا، ويجب إخفاؤه في المشدّد. ولا يُبالَغ في ترعيد اللسان كالصبيان، ولا يُخفَى بحيث يُشابه الحرف طاءً أو غينًا، بل يخرج بسليقةٍ متوازنة بين المرتبتين، محافظةً على طبيعته ووضوحه.

وسادسها: **التفشّي** في الشين؛ وهو انتشارُ الصوت في الفم نتيجة وجود تجويفٍ في أعلى الحنك، فينطلق الصوتُ متسعًا، يملأ الحلق والفم ويزداد وضوحًا ولينًا.

وسابعها: **الاستطالة**؛ وهي خاصّة بحرف الضاد، إذ يبدأ مخرجه من أقصى الحافة جهة الحلق، وتدفعه صفاتُ القوة من الجهر والاستعلاء والإطباق حتى يتصل بمخرج اللام، وينتهي بمخارج طرف اللسان، فيستوعب طولَ الحافة كلها عند السكون، ويجري الصوتُ فيه لرخاوته ولطفه، ولولا هذه الاستطالة لكانت الضاد شديدة. وهذا الحرف إذا لم يقدر الشخص على إخراجه بطبعه مراعيًا لجميع صفاته لم يخرج صوته الأصلي، والألسنة فيه مختلفة، وقلّ من يحسنه، فمنهم من يخرجه ظاءً، ومنهم من يخرجه ممزوجًا بطاء مهملة، ومنهم من يخرجه لامًا مفخمة، ومنهم من يمزجه بالدال، قال ابن الجزري: «وكل ذلك لا يجوز في كتاب الله، فليعمل القارئ الرياضة في إحكام لفظه»[١٠].

(١٠) التمهيد في علم التجويد (رقم ١٣٠) ولطائف الإشارات لفنون القراءات (١/ ٣٨٤).

«لم أكن لأفشي سرّ رسول الله ﷺ»

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أن عمر بن الخطاب» حين تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ فتوفي بالمدينة، فقال عمر بن الخطاب: أتيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة، فقال: سأنظر في أمري، فلبثت ليالي، ثم لقيني فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا.

قال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق فقلت: إن شئت زوجتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر فلم يرجع إلي شيئا، وكنت أوجد عليه مني على عثمان، فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله ﷺ، فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وجدت عليّ حين عرضت عليّ حفصة فلم أرجع إليك شيئا؟ قال عمر: قلت: نعم، قال أبو بكر: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليّ إلا أني كنت علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سرّ رسول الله ﷺ، ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتها.

صحيح البخاري (٧/ ٣١)

مشروع تعريب باكستان

الشيخ د. موسى بن عبد الغفار الشهابي حفظه الله

أهمية باكستان

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد؛ لا يخفى أن دولة باكستان من أكبر الدول الإسلامية إن لم تكن أكبرها؛ فهي من الأهمية بمكان، خاصة وقد امتازت بما يلي:

١ - البلد الوحيد في الدنيا الذي أسس على أساس الإسلام، وشاء الله تعالى أن تكون في نفس زمن الاحتلال اليهودي أي في عام ألف وتسعمائة وسبعة وأربعين للميلاد ثم سميت باسم إسلامي، فإن معنى (باك) الطهارة والطيب و(استان) الأرض، فهي الأرض الطاهرة أو الطيبة؛ لأنها استقلت بالمسلمين، فهي بلد إسلامي منذ نشأته.

٢ - البلد الفريد الذي اسم عاصمته «إسلام آباد» وهذا بمشيئة الله تعالى، وإلا فقد كانت عاصمتها مدينة «كراتشي» ثم حولت إلى «إسلام آباد».

٣ - البلد الوحيد من بلاد المسلمين الذي يملك أسحلة نووية وأقوى جيش في العالم.

٤ - مظاهر الإسلام ظاهرة جلية في باكستان، ونسبة التدين عالية، وما أكثر المساجد فيها والمدارس والمعاهد الشرعية فضلا عن حلقات تحفيظ القرآن التي لا تخلو محلة منها، فنسبة الدعاة والعلماء والحفاظ وطلبة العلم فيها بلغت الأوج.

مسوغات التعريب

١ - كثرة المتدينين وطلبة العلم الشرعي والعلماء والدعاة الذين تربطهم علاقة وثيقة بالقرآن والحديث وعلوم الدين، وكل هذا بالعربية.

٢ - اللغة الرسمية هي الأردية، وقد امتازت بالحروف وكثرة الكلمات باللغة العربية، حتى أن الورقة النقدية قد كتب عليها من الألفاظ العربية ما هو أضعاف الأردية مثل (حصول رزق حلال عبادت ہے) وكذلك الشعارات التي في الحكومة والجيش مثل (نظام إيمان وحدت)

٣ - لا توجد لغة موحدة بصورة عملية في البلد حتى أن الذي من أطراف إقليم سرحد، لو لقي الذي هو من أطراف إقليم السند فليس بينهما للتفاهم سوى لغة الإشارة فهذه فرصة لتوحيد البلد على لغة الإسلام الذي فصل لأجله، خاصة وقد وقعت معارك ضارية بسبب العنصرية القومية، فلا يجمع الشعب الباكستاني بمختلف قومياته إلا العربية الفصحى.

٤ - اللغة المشتركة الفعلية فيما بين المسلمين هي العربية؛ لأنها لغة صلاتهم وأذانهم وقرآنهم، وكل هذا يمارس يوميا تكلما وسماعا فما من أحد إلا ويتمنى أن يتعلم العربية ويرغب في تمكينها دون ما سواها من اللغات.

٥ - لم يكن تمكين العربية من أرض الواقع نظريا فحسب؛ بل تم تجريبه في مدرسة الحسن رضي الله عنه، فقامت العربية الفصحى فيها بصورة تامة، ومن قبلها مدرسة ابن عباس رضي الله عنهما، وأيضا قامت المدرسة

العربية للتعليم العصري على العربية الفصحى بشعبها الثلاث: الروضة، والابتدائية، والثانوية، فصار الناس يخرجون أولادهم من المدارس الأخرى ويدخلونهم في هذه المدرسة حبا بلغة القرآن.

٦ - لم تكن فكرة تعريب باكستان محدثة؛ بل هي فكرة قائمة لعلماء أجلاء منذ أن أسست باكستان، بيد أن تنفيذها بصورة عملية كان صعبا، أما الآن وقد كثر الناطقون بالعربية فقد باتت سهلة بإذن الله تعالى.

أثر التعريب

كل ما للغة العربية من فضائل، فإنه يكون في التعريب؛ فهي التي تقوي العقل والفطنة والفطرة والتقوى والتعلق بالقرآن والفصاحة والبيان، فكل هذا يكون مع التعريب، ولنا أن نكتب ما فضل عن هذا كالآتي:

١ - بالتعريب يتوحد الشعب الباكستاني؛ إذ ينتهي التفرق القومي ووحدته قوة وشوكة للبلد والإسلام والمسلمين.

٢ - العربية تربط المسلم بالقرآن مباشرة، وهذا يؤدي إلى تقليل التفرق الطائفي والمذهبي الذي لعب دورا خطيرا في تمزيق الشعب وإثارة العداوة والبغضاء بين أفراده.

٣ - إذا لهج الشعب بالعربية؛ فإن هذا يقوي الروابط بينه وبين المسلمين بصورة عامة والعرب بصورة خاصة، وهذا أوثق للتعامل والتعاطي وتبادل العلم والمعارف والخبرات.

٤ - لغة القرآن ليس لها مجتمع يلهج بها، فهي يتيمة على أرض الواقع وهذا حرمان كبير لأفراد الأمة حيث لا يجد مَن يصلي بها من المسلمين مجتمعا يلهج بها ليتعلم منهم، فلو عرَّب الله هذا البلد لكان أسوة لغيره من البلدان ولكان محلا لكل من أراد أن يتعلم لغة دينه.

خطوات العمل

١ - إقامة مؤسسة رسمية تحمل راية تعريب باكستان وتكون مجهزة من حيث الأعضاء والإمكانيات المادية والمعنوية.

٢ - إنشاء فريق خاص بالنشر والإعلام لتسويق هذه الفكرة عالميا لإثارة العالم الإسلامي حول هذه النقطة المهمة وهي جمع الأمة على لغة نبيها ﷺ.

٣ - وضع خطط مدروسة دراسة مستفيضة لمحاور العمل وهي كالآتي:

أولا: تعريب المدارس الدينية ويكون عبر ما يلي:

١ - تأهيل المعلمين لمواكبة العصر الراهن، وذلك بإقامة أقسام التخصص بالعربية لخريجي المدارس الدينية، وتأهيلهم ليدرسوا العلوم الدينية باللغة العربية وبجدارة، وذلك بتعليمهم العربية تكلما وخطابة وكتابة وفقه الفروق اللغوية، وكذلك تحفيظهم نخبة من الأحاديث المهمة للعالم، وأيضا تعليمهم ما يحتاج إليه العالم من علوم دنيوية، ثم في آخر السنة يُعلمون طرائق ووسائل وأساليب التعليم، ومن هو المعلم الناجح.

٢ - إقامة دورات لمدة سنة لطلبة العلم الذين درسوا في المدارس الدينية، فيُعلمون العربية محادثةً وخطابة وكتابة بإتقان، ويُرغَّبون في إقامة البيئة العربية بالمدارس التي سيكملون فيها دراستهم.

٣ - إقامة دورات لمدة سنة للطلبة المبتدئين الذين لم يلتحقوا بالمدارس الدينية بعدُ، فيُعلَّمون العربية قراءة وفهمًا ومحادثة، ثم يرسلون إلى المدارس ليبدؤوا مسيرتهم العلمية وقد أتقنوا العربية، وبهم يخلق جوٌّ فعال للتكلم بلغة القرآن.

٤ - إقامة أقسام تخصص للنساء؛ ليكنَّ معلمات العلوم الدينية باللغة العربية، سواء كان في المدارس الدينية أو في الروضات والمدارس العصرية، بعدَ تدريبهنّ وتأهيلهنّ لتربية الأطفال وتعليمهم.

ثانيا: تعريب المدارس الدنيوية والجامعات

وذلك بإنشاء مدارس دنيوية تقوم على البيئة العربية الفصيحة مبتدئة من الحضانة إلى آخر الثانوية، ثم تُنشأ جامعات تضم المتخرجين من هذه المدارس وغيرهم بالبيئة العربية وتكون المدارس والجامعات وفقا للمقاصد التالية:

أ – أن تقوم هذه المؤسسات التعليمية على لغة القرآن في التعامل والمحادثة والتدريس، فإنها الأصل في التعليم حيث تقوي ذهنية الطالب وعقليته وفطنته، ناهيك عن الفصاحة والبيان اللذين هما آلتا الوصول إلى المقاصد التعليمية والتربوية.

ب – أن يكون التعليم إسلاميا من حيث الثقافة والفكر والتصور وتكون العلوم الدنيوية (النواميس الإلاهية) موصلة إلى تعظيم الربِّ جلّ وعلا، وعلى أنها آياتٌ على عظمة الله، كما قال تعالى ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١] فلا يعظم المكتشف مثل (نيوتن) وغيره، بل يعظم الموجِد وهو الله جل في علاه، وهذا أبلغ في إدراك الكون وقوانين الله فيه فتكون هذه العلوم مورثة للخشية ويؤجر عليها المعلم والمتعلم والقائم على المدرسة.

ج- يجب أن تكون ثمرةُ التعليم تعود نفعا على المسلمين وأوطانهم، وبالذات البلد الذي تقوم به المدرسة وبهم ترقى بلاد المسلمين وتعلو، ويحذر من الذهاب إلى ديار الكفر وتقديم الخدمة لهم ولو بحجة جمع المال؛ لأن هذا يعمر ديار الكفر ويدمر ديار الإسلام وتقوى شوكة الشر على حساب الخير.

د- زرع فكر توحيد الأمة في نفوس الطلاب من أول وهلة؛ وذلك بتقوية الانتساب إلى الإسلام ونبذ ما سواه من المسميات، وتوحيد المسلمين على لسان نبيهم عليه الصلاة والسلام.

ثالثا: تعريب المساجد

وذلك بإنشاء دورات قصيرة لأئمة المساجد وتعليمهم كيفية تعليم عامة الناس العربية الفصحى وكيفية فهم كتاب الله تعالى بها.

رابعا: إقامة دورات لعامة الناس

وتكون على حسب حاجتهم إلى العربية؛ فمن كان ذاهبا لأداء العمرة والحج يُعَلَّم ما يحتاج إليه ليكون منطلَقا له في التكلم بالعربية والذي يريد العمل يُعَلَّم ما يحتاج إليه أثناء عمله؛ لأن تعلم ما يحتاج إليه المرء أبلغ في إتقان أي لغة من لغات العالم.

هذا، ونسأل الله تعالى أن يجعل هذا خالصا لوجهه الكريم كما نسأله أن يوفقنا لرفعة الدين وعون المسلمين وأن يبلغنا ما قصدنا فهو المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به جل في علاه.

درر المشايخ

حكم لبس الثوب الحسن

سُئِل حكيم الأمة التهانوي رحمه الله: هل يجوز لبس ثوب حسن بعد الغسل يوم الجمعة؟

أجاب: يجوز؛ لأنه نوع من الجمال، وورد في الحديث: «إن الله جميل يحب الجمال»(١).

ثم قال: يقصد الناس أحد الأمور الأربعة عند لبس ثوب حسن:

١ - تحقير الآخرين (الخيلاء).

٢ - السرور.

٣ - اجتناب الذل والهوان (دفع المضرة).

٤ - توقير الآخرين، مثل زيارة الحاكم أو زيارة المشايخ، فيلبس الثوب الحسن إكرامًا لهم.

أما **الصورة الأولى**: فحرام؛ لأنه في حكم البطر، لحديث: «من جر إزاره خيلاء»(٢).

وأما **الصورة الثانية**: فهي في حكم الجمال كما مرَّ.

وأما **الصورة الثالثة**: فهي في حكم دفع المضرة، لقوله: «حَسِّن ثيابك فإن بها يُعِزُّ الناس ويُكرِم»(٣).

وأما **الصورة الأخيرة**: فهي مسنونة؛ لأن النبي ﷺ ارتدى مرة للقاء حمزة رضي الله عنه، وكان مقصوده من ارتدائه توقير حمزة رضي الله عنه؛ لأنه كان أكبر من النبي ﷺ من حيث السن والقرابة(٤).

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه.

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده، مسند عبد الله بن عمر، ولفظ البخاري في صحيحه وغيره: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرا».

(٣) ذكره صاحب «نزهة المجالس ومنتخب النفائس» ونسبه إلى الإمام مالك رحمه الله، والبعض نسبه إلى الإمام الشافعي. وهي: «حسن ثيابك ما استطعت فإنها ... زين بها تعز وتكرم»، في باب فضل الجمعة.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الخمس، باب فرض الخمس، عن الزهري: أخبرني علي بن الحسين: أن حسين بن علي عليهما السلام أخبره أن عليا قال: «كانت لي شارف من نصيبي من الغنم يوم بدر... فدعا النبي ﷺ بردائه فارتدى، ثم انطلق يمشي، واتبعته أنا وزيد بن حارثة حتى جاء البيت الذي فيه حمزة، فاستأذن فأذنوا لهم...».

تعريب وتخريج: أ. محمد الياس بن عمران

علم العروض.. من الرموز إلى التذوق

أ. محمد عمران، إسلام أباد

العَروض علم يضبط به أوزان الشعر العربي، ويُميّز به الصحيح من المكسور، والموزون من المنثور، وأداة لقراءة الشعر بانسجام، وفهمِه فهمًا دقيقًا، ولولا هذا العلم لالتَبس الشعر بالنثر، وضاعت الأوزان، وتشوه الإيقاع، ورغم هذا النفع الكبير لهذا الفن الشريف، نلاحظ عند أكثر الطلاب شيئا من النفور من هذا العلم، وشعورًا بالغموض والملل تجاهه.

وهنا نقف ونسأل: لماذا...؟ وما الذي يجعل هذا الفن الجميل يتحول إلى عبء ثقيل لدى الطلاب؟

السبب الأبرز لنفور الطلاب من علم العَروض يعود إلى الأسلوب الجاف والمعقد الذي يُقدّم به، حيث يُقدَّم بصورة نظرية مليئة بالمصطلحات والرموز، قبل أن يتذوق الطالب جماله الإيقاعي وترانيمه الفطرية؛ فكثير من الكتب التعليمية تبدأ مباشرة باستخدام مصطلحات صعبة وغريبة مثل: «الإضمار والطي والخزل والعقل والقطف والقطع»، ومثل «فعولن مستفعلن فاعلات»، وتُلزم الطالب بالتقطيع العروضي والكتابة العروضية التي لها قواعدها ورموزها المجردة (/ ٠) - الحركة والسكون- دون أن يكون له سابق عهد بهذه المصطلحات والأوزان، ويطالَب من خلال ذلك بأن يعرف البحر الذي ينتمي إليه البيت.

وهنا يقع الطالب في حيرة واضطراب، إذ يتحول علم العروض – وهو فن راقٍ – إلى مجموعة من الطلاسم والرموز الجافة، فيفقد رغبته في استكشافه، ويجد نفسه أمام مادة غريبة لا يعرف كيف يتعامل معها، ويرى أن علم العروض معقد ومبهم وممل لا علاقة له بالشعر.

والحل: أن نبدأ مع الطالب بالتذوق السمعي وإيقاع الشعر، وأن يدرك أن لكل بحر ترنيمته الخاصة ونغمتَه المختلفة، ثم يحفظ أبياتًا ويُرددها بتلك النغمة، حتى تنطبع الأوزان في ذهنه عن طريق السمع، وتتكوّن لديه الأذن العَروضيَّة التي هي المفتاح الحقيقي لتعلُّم علم العَروض.

وقد كان شعراء العرب قبل أن يُدَوَّن علم العَروض ينظمون الشعر اعتمادًا على فطرتهم السليمة وملكتهم الخاصة، حتى جاء الخليل بن أحمد، فاستقرأ أشعارهم وضبط أوزانها في بحور وقواعد، وهذا يدل على أن الإيقاع سابق على التقطيع العروضي، وأن الأذن العَروضية هي الأساس الأول في نظم الشعر وفهمه.

والنغمة تُكتسب أولًا بالسماع، بأن يستمع الطالب إلى منشد أو ملق يُلقي أبياتًا على نغم خاص، ثم يُحاكيه ويُقلّده في تلك النغمة، ومع التكرار وممارسة الترديد، وتقطيع عدد كبير من الأبيات بتلك النغمة، يترسخ الإيقاع في ذهنه، وتتكوّن لديه القدرة على تمييز البحر بمجرد السماع.

ولكي يصل الطالب إلى معرفة البحر بنجاح، لا بد أن

تكون قراءة البيت سليمة، والنغمات متقنة، والأداء طبيعيًا وخاليًا من التكلّف، لأن الأداء الصناعي يُفسد الإيقاع ويشوِّه النغمة، وكلما كانت النغمات متقنة كان الأداء خاليًا من التكلف، وقد تتشابه نغمات البحور أحيانًا، بحيث يمكن قراءة البيت الواحد على أكثر من إيقاع، لكن هذا الالتباس يزول بالتقطيع العروضي.

فإذا تكوّن الإيقاع في ذهن الطالب ووصل إلى معرفة البحر به، يبدأ دور التقطيع والتحليل، لا بوصفه رموزًا مجردة، بل كترجمة لما سمعه وشعر به من إيقاع، وكأداة لكشف الدقائق والغوامض من التغييرات الواقعة في أصل الوزن.

ويمكن أن نستخلص ما تقدم في أن علم العروض مبني على مهارتين أساسيتين:

الأولى: مهارة التنغيم، وهي مبنية على أن لكل بحر نغمة وإيقاعه الخاص، يتميز به ذلك البحر الشعري عن غيره من البحور، وهي مهارة تُكتسب بالممارسة المستمرة والترديد المتكرر، حتى يستطيع الطالب أن يُدرك البحر بمجرد سماع البيت، دون حاجة إلى تقطيع أو رموز، وتُعرف باسم «الأذن العَروضية»، وهي الخطوة الأولى نحو تذوق الشعر تذوقًا سليمًا.

أما الثانية: فهي مهارة التحليل، وتتمثل في تقطيع البيت إلى تفعيلاته، وتحليل ما قد يطرأ عليه من زحافات وعلل، ومعرفة القافية، والضوابط الدقيقة للوزن، وهذه مهارة تحليلية تُستخدم لحل الإشكالات التي قد تخفى على الأذن.

وعند التأمل في المهارتين، نجد أن مهارة التنغيم تمتاز بعدة خصائص منها:

١ - توافقها للفطرة؛ لأن الإنسان يلتقط الإيقاع بالأذن قبل أن يكتبه بالرموز.

٢ - تمكين الطالب من إدراك الوزن مباشرة من خلال السماع دون الحاجة إلى التقطيع الرمزي.

٣ - تكوين الحس العَروضي الذي يُنبّه الطالب تلقائيًا إلى الخلل في الوزن.

٤ - التمهيد السلس للتحليل العروضي، إذ يصبح التقطيع شرحًا لما أدركه سمعه.

أما مهارة التقطيع العروضي، فرغم ضرورتها في ضبط الأوزان، واستكشاف الدقائق من الزحافات والعلل، فإنها تواجه بعض الصعوبات، منها:

استخدام الرموز المجردة الجافة في التقطيع التي تجعل الطالب كأنه يعامل الطلاسم، ويشعر أن العروض لغة غريبة ورموز غامضة لايفهمها.

١ – انشغال الطالب بعدّ الحركات والسكنات، فيهمل المعاني والجمال.

٢– صعوبة تحويل النص من الرسم الإملائي إلى الكتابة العروضية، وما يطرأ عليه من حذف أو إدغام أو تشديد، مما يجعل الطالب يعتمد أحيانًا على التخمين في التقطيع، فيتردد ويضطرب في معرفة البحر.

٣ – وأخيرًا، ما يسببه التقطيع الجاف من الملل والإرهاق الذهني إذا فُصل عن الإيقاع والتذوق.

ومن هنا يتجلّى دور المعلم في تيسير الفن، وتبرز أهمية الطريقة الأنسب في التدريس، التي تركز على ترهيف الأذن العروضية أولاً، ثم الانتقال إلى التقطيع والتحليل، ليصبح علم العروض فنًا محببًا وجميلًا، لا عبئًا ومصدر ملل .

ونؤكد في ختام هذا المقال أن الطريقة التي عرضناها هنا ليست طعنًا في الطريقة المتداولة في تعليم علم العروض، ولا نراها باطلة، بل هي طريقة معتبرة لها أثرها ومكانتها، وخاصة لمن افتقد الأذن العروضية أو المَلَكة التناغمية، ولسنا نزعم أنها أفضل طريقة على الإطلاق، بل هي اقتراح في تقريب الفن وتحبيبه إلى أذهان الطلاب، وربطه بالتجربة والواقع، كما تجدر الإشارة إلى أن الغرض من علم العروض ليس صناعة الشعر فحسب، بل معرفة الخلل الواقع في البيت الشعري، والتمييز بين صحيحه من مكسوره، والله الموفق.

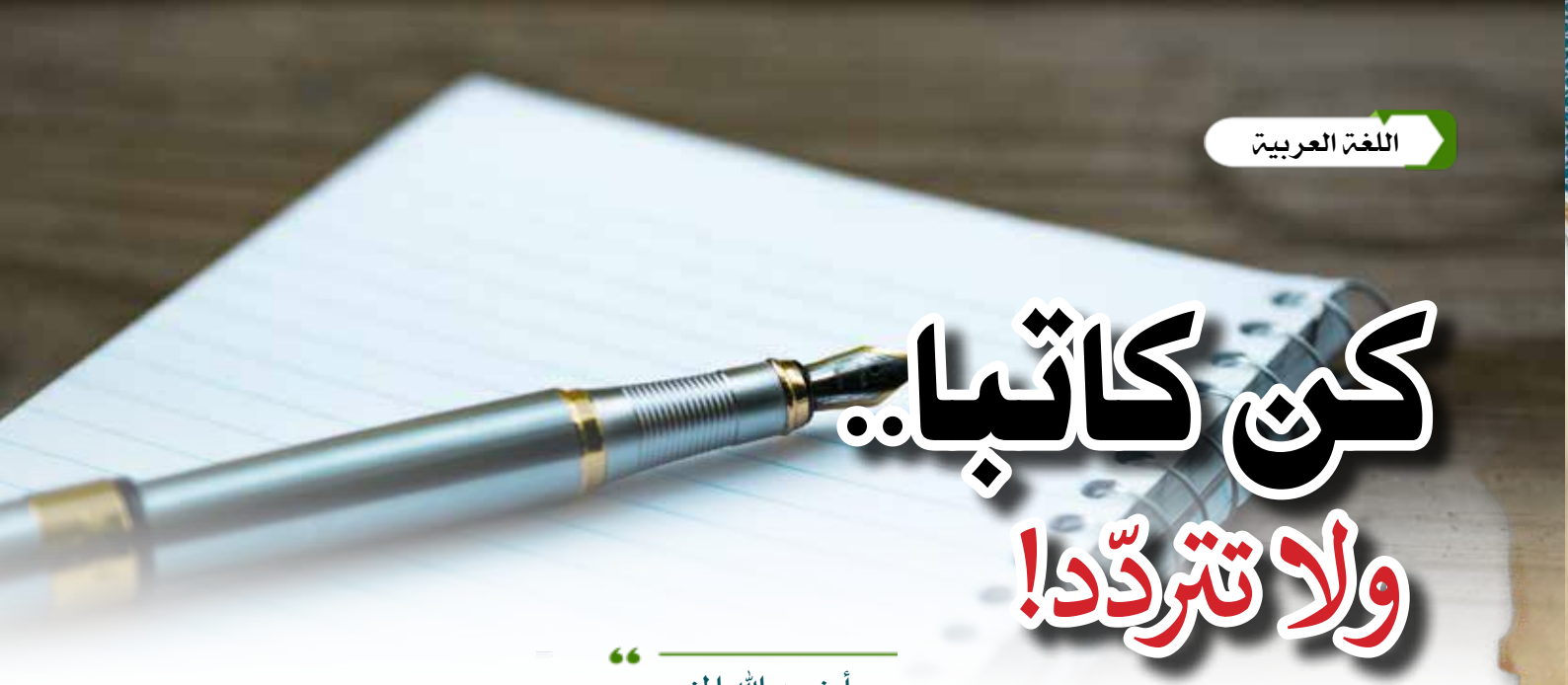

كن كاتبا.. ولا تتردّد!

أ. نصير الله المنصور

إني أخاطب نفسي وأمثالي من المعلمين الأماثل بهذه المقالة الوجيزة، الذين يريدون كتابة مقالات في مختلف القضايا والمجالات؛ لكنهم يجدون صعوبة في الشروع فيها، وذلك لأسباب مختلفة - قد تكون بسيطة وتافهة وهينة -، مثلا: قد يمنعهم من الكتابة الخوفُ من النقد أو الخجل من الأخطاء، أو وجود عوائق معقولة أخرى؛ كقلة الزاد والمواد أو المعلومات المتعلقة بالموضوع نفسه، أو العجز عن استيعاب موضوع يريدون الكتابة فيه، فعند وجود مثل هذه الحواجز والموانع، ماذا يفعل الكاتبُ يا تُرى...؟ وما سبيل التخلص منها...؟

قبل أن نتطرق إلى ذكر بعض هذه العوائق العامة وحلولها أو كيفية التعامل معها؛ يجب أن نعلم أن الإنسان إذا عزم وصمَّم على شيء؛ فعلَه، وكم من صغير أنجز أمورا كبيرة، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، فليس ثمة قوة تحول بينه وبين عزائمه وإراداته الثابتة سوى قدر الله ومشيئته، فإن الله - سبحانه تعالى - لم يخلق الإنسان إلا قائدا وقواما ومقداما، وسخر له الكون بما فيه، فلنا أن نستحضر في كل أمر نقوم به، أن الدافع الحقيقي للإنسان ومحركه هو: عزمه المصمم وإرادته القاهرة التي لا تعرف اليأس والخيبة والقهقرى، وكما قال أحد الشعراء:

إذا كنت ترجو كِبارَ الأمور
فأعدِد لها هِمةً أكبرا

فما رأيك في رجل بيديه مال، ولا ينفق منه؟

ومن بيديه السلطة والقدرة، ولا يستعين بها في رفع المظالم والكربات؟

ومن ملك فصاحة النطق والبيان، ولا ينفع بها الأمة؟

وما رأيك فيمن اتخذ القلم سلاحا له، ثم لا يستعين به في تغيير عقول المجتمع الذي يُعَايشه؟

فإذا قال قائل: كيف أكتب، فإن الله لم يهب لي مهارة الكتابة؟

فإليك الحل أيها الأخ الكريم؛ إن ظنك عن الكتابة أنها موهبة فطرية لا تُمنح إلا لقلة من الناس، وأنها لا يمكن اكتسابها، إنه اعتقاد خاطئ؛ لأن الكتابة من المهارات التي يمكن اكتسابها ومن ثم تطويرها بالممارسة، فكما يتعلم الرسام الرسم، والنجار النشر، والخياط الترقيع، يمكن للجميع أن يتعلموا الكتابة... وإليكم بعض العوائق وحلولها:

العائق الأول: إذا كتبتُ سينقدني الناسُ؟

الحل: يا أخي، إذا كتبت ونقد الناسُ كتابتَك، فلا تظن أن ما نقدوك به نقدٌ سلبيٌ؛ بل إنما هو نقد يساعدك فيما أخطأت وزلَّ به قلمك، وستتعلم أكثر عندما تَصِلُ أفكارَهم بأفكارك، وتجيد أكثر عندما تربط أساليبك بأساليبهم وآرائهم، وبنقدهم إياك ستنضج الأفكار وستكثر الثمار، اعتبر النقد صقلاً لمهارتك وتلميعا لكتابتك، وهو جزء طبيعي لا ينفكُّ عن الكتابة، ولنا أن نستحضر أنه لا يوجد عمل يُرضي الجميع، ولقد صدق من قال: «رضى الناس غاية لا تُدرك»، فلنا أن نجعل النقد سُلّما نتدرَّج به إلى

الكمال دون التقاعس والزوال.

العائق الثاني: كيف أكتب وفي كتابتي أخطاء كثيرة؟

الحل: الخوف من الأخطاء من أعظم عوائق الكتابة، عليك أن تدرك أن الخطأ جزء لا يتجزّأ من رحلة الكتابة، كل كاتب ناجح بدأ من الصفر، وربما كتب نصوصًا مليئة بالأخطاء قبل أن يصل إلى مرحلة الإتقان والجودة، اكتب بلا تردد، ثم عُد إلى نصوصك ونقّحها بنفسك أو استعن بمن تراه مناسبا، يرشدك ويهديك ويصلح لك، ستجد أنك تتحسن مع كل محاولة، ولا تنسَ قول القائل: «إن لكل جواد كبوة».

العائق الثالث: أعرف النطق بالعربية، لكني لا أعرف التعبير عن أفكاري كتابة؟

الحل: يا أخي الكريم، أن الذي يقدر على النطق بالعربية يقدر على التعبير، وهذا ما لا يختلف فيه اثنان، ولا يستبعد أن يخطئ لبكاتب في بداياته مرارًا، شأن كلِّ عملٍ جديدٍ، إنه لا يخلو عمل من التصحيح والتدقيق والتعقيب، فلا تتراجع وقم وثابر، ابدأ من الجمل ثم ارتقِ إلى الفقرات حتى المقالات... نعلم جميعا أن الكتابة هي نقل معلومات موجودة في الذهن إلى القرطاس، وتحويل الأفكار الناشئة في الذهن إلى الدفاتر والقراطيس... فكل ما تنطق به يمكن أن تكتبه...

العائق الرابع: لا تخطر ببالي أفكار عن موضوع معين فكيف أشرع في الكتابة؟

الحل: أخي الكريم، أذكر لك بعض الإرشادات في شكل نقاط، اعمل بها فسوف تجد نفسك قادرا على الكتابة بإذن الله:

١ - عليك بتعيين موضوع قبل الشروع في الكتابة.

٢ - طالع واجمع المعلومات الثابتة حول موضوع تريد الكتابة فيه، من شتى الموارد والشوارد والمظان التي بين يديك؛ لأن المطالعة غذاء الفكر وهو بمنزلة النفط للسيارة، ومن كثرت معلوماته كان لمقاله أثر بالغ في نفوس قارئيه...

٣ - اشرع في الكتابة بلا تردد؛ فالأهم في البداية أن تكتب باستمرار، جملا كانت أو فقرات، دون التفكر في الجودة، نعم إن الجودة سوف تطرأ نتيجة ما تبذله من وقت في المطالعة والتفكير والتنسيق.

٤ - حول الجمل إلى فقرات متناسقة مترابطة مستعينا بأدوات الربط المناسبة.

٥ - أعد النظر فيما كتبت، ونقِّح ما يحتاج إلى التنقيح واحذف ما يحتاج إلى الحذف.

بهذه العملية السهلة تجد مقالك جاهزا بلا تعب وعناء.

وفي الختام، كن كاتبًا ولا تخف ولا تتردد، اسمح لكلماتك بأن تكون مرآةً تعكس روحك وأفكارك، تذكر أن العالم بحاجة إلى أسلوبك الشيق الفريد، ما عليك سوى الشروع، فابدأ الآن، ودَع الحروف ترسم لك الطريق، وإلى اللقاء.

فإن نصرتَني .. وإلا استنصرتُ الله!

«قال بعض الهاشميين: كنت جالسا عند المنصور بإرمينية، وهو أميرها لأخيه أبي العباس، وقد جلس للمظالم، فدخل عليه رجل فقال: إن لي مظلمة، وإني أسألك أن تسمع مني مثلا أضربه قبل أن أذكر مظلمتي، قال: قل. قال: إني وجدت الله تبارك وتعالى خلق الخلق على طبقات، فالصبي إذا خرج إلى الدنيا لا يعرف إلا أمه ولا يطلب غيرها، فإن فزع من شيء لجأ إليها، ثم يرتفع عن ذلك طبقةً فيعرف أن أباه أعزُّ من أمه، فإن أفزعه شيء لجأ إلى أبيه، ثم يبلغ ويستحكم فيعرف أن سلطانه أعز من أبيه، فإن أفزعه شيء لجأ إلى سلطانه، فإن ظلمه ظالم انتصر به، فإذا ظلمه السلطان لجأ إلى ربه واستنصره، وقد كنت في هذه الطبقات، وقد ظلمني ابن نهيك في ضيعة لي في ولايته، فإن نصرتني عليه وأخذت بمظلمتي، وإلا استنصرت الله عز وجل، ولجأت إليه، فانظر لنفسك أيها الأمير، أو دَعْ.

فتضاءل أبو جعفر، وقال: أعد عليّ الكلام. فأعاده. فقال: أما أول شيء فقد عزلت ابن نهيك عن ناحيته، وأمر برد ضيعته.»

الفوائد والأخبار لابن دريد (ص١٢)

كيف أطوّر لغتي؟

أ. ولي الله الشاهد

كان صباحًا هادئًا، خرجتُ من المسجد منطلقًا نحو الغرفة، فإذا بأحد طلاب التخصص في اللغة العربية يقترب مني مسرعًا، وعيناه تحملان شيئًا من التردد والانكسار الداخلي، وكأنه يخفي في صدره سؤالًا طالما أرّقه، ليبوح به إليّ.

كان من أولئك الذين يتوقون إلى إتقان اللغة العربية، وقد عرفت فيه حبه للغة وحرصه على السؤال والبحث.

ناداني قائلًا: يا أستاذ، يا أستاذ، كيف أطور لغتي العربية؟ ثم تابع قائلًا، بصوت فيه شيء من الانكسار:

أنا أقرأ الحوارات العربية، وأتمرن على الإنشاء، وأحضّر دروس اللغة العربية، لكني أشعر بأن لغتي لا تزال متعثّرة، لا أجد فيها الطلاقة التي أتمناها، ولا التدفق الذي يُظهر قدرتي على التعبير.

لا شك أن سؤاله هذا؟ كان عميقًا، لا يمثّله وحده، بل يمثّل شريحة واسعة من طلاب العلم ومحبي اللغة، لذا قررتُ أن أكتب مقالة تكون بمثابة جواب جامع يشفي علّته، ويروي غُلّته، وعلة كل سائل طالما تردد في صدره هذا السؤال، فيستفيد منه هو وغيره.

عزيزي القارئ، إن اللغة ليست مجرد ألفاظ تُحاك، ولا تراكيب تُجمع فحسب، بل هي روح تُسكب في الجمل، ونبض يُبثّ في الحروف، ووسيلة تفكير، وتأثير، وتعبير.

واللغة العربية خصوصًا، تحمل في أعماقها كنوزًا من البلاغة، والجمال، والدقة، وهي مفتاح العلوم، وجسر الفهم، وسُلّم الرُّقيّ، ولأنها لغة القرآن الكريم، ولسان الوحي؛ فقد حظيت بمكانة لا تُضاهيها أي لغة أخرى، ومن هنا تنبع أهمية العناية بها، والحرص على إتقانها، والارتقاء بمستوى التعبير بها.

لكن كيف يمكن أن نُطوّر لغتنا العربية؟

ما الأساليب؟ وما المهارات؟ وما الأدوات التي تُعيننا على هذا الهدف النبيل؟

لقد أجمع اللغويون على أن أي لغة من اللغات في العالم لا تُتقن إلا باكتساب أربع مهارات أساسية لا يستغني عنها طالب علم، ولا متعلم مبتدئ، وهي: الاستماع، والكلام، والقراءة، والكتابة.

فكل مهارة تُكمل الأخرى، وهي تزوّد الطالب بأدوات التعبير الصحيح عمّا في نفسه بلغة سليمة وواضحة، وثروة لغوية من مفردات وتراكيب وأساليب تعبيرية.

إليك خلاصة هذه المهارات الأربع فيما يلي:

أولًا: مهارة الاستماع

إن أول ما يتعلمه الإنسان من اللغة، هو ما يلتقطه بأذنه، لا ما يكتبه بيده، أو يقرأه بعينه؛ فالاستماع هو مفتاح الفهم، وبوابة التعبير، وهو أول مصدر لتعلّم اللغة، ومنه تبدأ رحلة الفهم والتعبير. نحن نراقب الأطفال في بداياتهم، فنرى أن الاستماع يسبق كل المهارات الأخرى، فهم يتقنون النطق والتراكيب دون أن يدرسوا قواعدها، وإنما يلتقطونها من البيئة المحيطة بهم، سماعًا وتكرارًا.

والاستماع الجيد لا يعني مجرد تلقي الصوت، بل هو انتباه كامل، وإدراك للمعنى، واستحضار للسياق، وتذوق للنغمة والأسلوب، ولهذا كان من أعظم ما يُعين طالب اللغة على تطوير لغته أن يُدرّب سمعه على ما هو فصيح وسليم، فإن السماع المتكرر للغة يُنبِت في النفس ذوقًا

لغويًا، ويغرس في الذهن أساليب أدبية قد لا يُدركها المتعلم مباشرة، لكنها تنمو في داخله كما تنمو البذرة في الأرض.

ومن أنفع الوسائل لذلك: الاستماع إلى القرآن الكريم بتدبر وتجويد، ففيه أفصح الكلمات، وأبلغ العبارات، بل هو منبع الفصاحة والبيان، ثم متابعة الخطب والدروس المسجَّلة بالعربية الفصيحة، وبالإضافة إلى ذلك تخصيص وقت يومي للاستماع إلى مقاطع حوارية بلغة سليمة.

ثانيًا: مهارة الكلام

هي الثمرة الناتجة من مهارة الاستماع، وهي الميزان الذي يُقاس به حصاد الاستماع والقراءة، بل هي الدليل الأسبق على فهم المتكلم وتمكنه، فما أكثر من يحفظ الكلمات ويخزن العبارات، ولكن حين يُدعى إلى التعبير، يتعثر لسانه، أو تخرج كلماته متكسّرة أو مغلقة المعنى؛ بل قد تجد من المدرّسين من زاول مهنة التدريس لمدة سنين، لكنه عند النطق بالعربية تجده لا يقدر على شيء من ذلك، وهنا تتجلى أهمية هذه المهارة، فهي مرآة العقل، ووسيلة التأثير، وطريق البيان، ثم إن مهارة الكلام لا تُولد فجأة، ولا تُنال بقراءة كتاب أو حفظ قائمة، بل تُصقل بالممارسة، وتُربى بالتدرج، وتُطوّر بكثرة المحاولة والثقة بالنفس.

ومن أوسع أبواب اكتسابها:

١ - استخدام العربية في الحياة اليومية: في التحية، والوصف، والأسئلة.

٢ - الاشتراك في الحوارات الصفية والنوادي اللغوية.

٣ - إلقاء الكلمات والمشاركة في النشاطات.

ثالثًا: مهارة القراءة

القراءة تنمي الفكرة، وتغذي الخيال، وتُكسب القارئ ثروة لغوية هائلة، وتساعد الإنسان على فهم الحياة بشكل أفضل، كلما قرأنا أكثر، أصبحنا أذكى وأكثر وعيًا، فالإسلام شجَّع على العلم والقراءة، وكانت أول آية نزلت على النبي ﷺ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

فالقراءة تمنحنا القدرة على التعبير بثقة، وتفتح لنا أبواب النجاح في الدراسة والعمل والحياة، كما أنها تعزز التفكير النقدي، وتحفز العقل على التحليل والتفكير بشكل أعمق.

بالإضافة إلى ذلك، تُعد القراءة وسيلة للاسترخاء والهروب من ضغوطات الحياة اليومية، مما يساعد على تحسين الصحة النفسية، ومن خلالها يمكن للمرء التعرف على ثقافات مختلفة، مما يعزز التسامح والتفاهم بين الشعوب.

وإذا أردت أن تطور لغتك العربية فعلاً، فاعلم أن القراءة المنتظمة والموجهة هي من أفضل الطرق.

لكن يبقى السؤال: ماذا نقرأ؟

الجواب عن هذا السؤال يختلف من شخص لآخر بحسب مستواه في اللغة وقدرته على الفهم.

لذا، من المهم أن يكون اختيار الكتب مرحليًا ومناسبًا لمستوى المتعلم.

على الطالب المبتدئ أن يقرأ كل يوم شيئًا يسيرًا من القصص ذات الأساليب السهلة، مثل كتب سلسلة القصص لكامل كيلاني، وسلسلة القصص لمحمد عطية الإبراشي، فهي كتب مناسبة للمرحلة الأولى، لما فيها من مفردات واضحة، وأسلوب بسيط، ثم بعد ذلك، ينتقل إلى قراءة كتب متوسطة في الأسلوب، كـ«صور من حياة الصحابة»، و «من حياة التابعين»، و «دروس اللغة العربية».

وفي المرحلة الثالثة، ينتقل إلى مطالعة كتب الأدباء، فليقطف من ثمار أدب مصطفى لطفي المنفلوطي، وليغترف من معين عبد الفتاح أبي غدة.

رابعًا: مهارة الكتابة

الكتابة تمثل قمة المهارات، فمن كتب فقد فَهِم وعبّر وأتقن، وهي أكثر المهارات كشفًا لمستوى الطالب، وأقواها تأثيرًا.

ومن الطرق العملية لتحسين الكتابة:

- كتابة اليوميات باللغة العربية.
- تلخيص ما تم سماعه أو قراءته.
- اختيار كاتب مبدع ومحاولة تقليده في بعض كتاباته للتمرن على التراكيب الجميلة.
- اعرض كتاباتك على من تثق بعلمه، ليصححها لك وتتعلم من ذلك.

يا من سألني: كيف أطور لغتي العربية؟

ابدأ اليوم، وتذكر أن مفتاح البيان كثرة الاستعمال، وأن سر الفصاحة كثرة التكرار.

العربية ليست صعبة كما يُشاع، لكنها لغة دقيقة، لا تعطي إلا لمن صبر، وتذوَّق، وسار على خُطى أهلها، فاستعن بالله، ولا تعجز.

لقاء مع
منارة الرشد والإرشاد

سلسلة بديعة في مقاييس اللغة تكشف للقارئ الترابطَ بين الكلمات المنبثقة من جِذْر واحد، وأسرارَها اللفظية والمعنوية بأسلوب حواري جذّاب

أ. محمد شعيب

أيها القارئ الكريم! لقد استضفنا للقائكم شخصا هو نار في رأس جبل ومنارة في ظلمات البر والبحر، يقصده البشر في شؤون دينهم ليسترشدوا فيُرشدوا عالمهم... وفي شؤون دنياهم ليتثقفوا في ما عالهم... وأما من أخطأه فقد تاه في سبل لا خروج منها حتى يرجع أدراجه فيوجِده أو يهلك في ضلاله... فلنرحب به في رحابنا المغمور بأنواره.

مجلة الحبر: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، مرحبا بك! إننا مغمورون بالسعادة، حين وطئت دارنا لتنشر نفحاتك الزكية على شعبنا وقراءنا.

الضيف: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، شكرا جزيلا على أنك أتحت لي فرصة لأخاطب فيها الجمهور عبر منصتك الساعية لنشر العلم والعرفان.

مجلة الحبر: لو سمحت ألق الأضواء على سيرتك الذاتية لينكشف شخصك النبيل على قرائنا فيتزودوا لحياتهم ويدركوا ما لهم وما عليهم.

الضيف: خلق الله الإنسان، ومنَّ عليه بالجوارح والحواس، ثم كشف له طريقين، إحداهما موسومة بالاتباع والاستنان والأخرى مدنسة بالزيغ والعصيان، فأنا الأولى المسمى بـ«الهدى» الحامل جميع أنواع الخير والسلام، قد أودع الله في كياني العقل والفطنة والمعرفة فلم أكن أخص البشر فحسب؛ بل عمَّت خيراتي جميع الخلائق، فهي تهتدي لتدبير حياتها وتنسيق شؤونها في ضوء «الهدى» الذي قسمه الله عليها، فإن الله سبحانه قال: (الذي أحسن كل شيء خلقه ثم هدى)

مجلة الحبر: ما هو المعنى الأساسي لـ«الهدى»؟

الهُدى: من المعاني الأساسية لـ«الهدى» تبيين الشيء وتعريفه والإرشاد إليه.

مجلة الحبر: لماذا يقال للنهار «هدى»؟

الهدى: يقال للنهار «هدى» لأن الأشياء تتبين فيها أكثر، فهو من مجاز تسمية المحل بإرادة الحال.

مجلة الحبر: يقال للطاعة والورع «الهدى»، كيف يكون توجيه هذا المعنى نظرا إلى المعنى الأساسي؟

الهدى: إن الطاعة والورع ثمرة الإرشاد وحصيلته، فهو من مجاز التسمية بالنتيجة والمآل.

مجلة الحبر: كيف يستخدم الفعل من مادة «هدى» ؟

الهدى: يستخدم الفعل «هَدَى» متعديا إلى مفعولين من غير صلة، يُقَالُ: هَدَيْتُ الإنسانَ الطَّرِيقَ، كما أنه يستخدم بصلة «لـ» للمفعول الأول، فيقال: هَدَيْتُ لِلإنْسانِ الطريقَ، ويُزاوَل بصلة «لـ» و«إلى» للمفعول الثاني، فيُقَالُ: هَدَيْتُهُ إِلى الطَّرِيقِ وَلِلطَّرِيقِ.

مجلة الحبر: وما هو توجيه هذا الاستخدام؟

الهدى: إن العرب قد يستخدمون فعلا استخدامَ مترادِفِه، فـ«هدى» متعدٍّ إلى المفعولين نظرا إلى المترادف «عرَّف» المتعدي بغير صلة، يقال: عرّفتُ الإنسان الطريق، أما تعديته مع الصلة في المفعول الأول فهو نظرا إلى معناه «بيَّن» يقال: بينت له الطريق، وعُدِّيَ مع صلة «إلى» و «لـ» في المفعول الثاني باعتبار كونه مرادفا لـ«أرشد»، يقال: أرشدته إلى الطريق وللطريق.

مجلة الحبر: أحسن اللهُ إليكم، لقد وجهتنا إلى نكتة

دقيقة، لو سمحت، اكشف لنا معاني «الهادي» وترابطها بالمعنى الأصلي.

الهدى: لا شك أن كلمة «الهادي» قد استخدمت في غير معناها المعروف، وإليك بعض منها: الدليل والعصا وكل متقدم، والعنق وأوائل الليل. أما تسمية دليل القوافل بـ «الهادي» واضح لأن وظيفته إرشاد القوافل وهدايتها الطريق الصحيح. وسميت العصا بـ«الهادي» لأنها تدل صاحبها على الطريق، وكلاهما – الدليل والعصا – يتقدمان على من يتبعهما، فتولّد لـ «الهادي» معنىً جديدٌ وهو: كلُّ متقدم أو من كان ميزته الأولية، فالعنق هادٍ لأنه متقدم على الجسد، ويقال: هوادي الخيل، أي: أعناقها أو أول رعيل يطلع منها، وهوادي الليل أوائله، ثم توسعت دائرة معنى «التقدم» حتى استخدم الفعل«هدى» لتأدية معنى تقدَّم، يقال: هدَت الإبل إذا تقدمت.

مجلة الحبر: تطلق العرب «الهدِيّة» لشيء يُتحَف به تكريما لأحد، كيف يكون ربط هذا الإطلاق بالمعاني الأساسية؟

الهدى: كانت العرب ترسل الوفود إلى الملوك والأسياد، تتقدمها تُحَفٌ تشريفا وتكريما لهم، فسمّيت بـ «الهدية» للمح معنى التقدم. ثم توسع هذا النطاق فاستخدم الفعل «أهدى» بمعنى أعطى هدية.

مجلة الحبر: هل يكون التوجيه نفسه في الهدْي الذي يساق إلى الحرم؟

الهدى: الهدْيُ والهدِيّ ما يُهدى إلى مكة من النَّعَم وغيره من مال ومتاع، فيكون فيه التوجيه نفسه، إلا أنه ازداد في الهدي معنى القداسة والحرمة، لأن العرب كانوا يحترمونه ولا يمسّونه بالسوء.

مجلة الحبر: لكن العرب تقول للإبل «هديا» وإن لم يكن من ورائه قصد الإرسال إلى مكة؟

الهدى: أما تسمية الإبل عامة بـ «الهدي» فهو من باب التسمية للشيء ببعضه.

مجلة الحبر: تسمي العرب بـ «الهدِيّ» الشخص النازل في قوم وهو ليس منهم، كيف يربط هذا الإطلاق بالمعنى الأساسي؟

الهدى: كما ذكرنا آنفا أن معنى القداسة والحرمة تولد في «هدي» الإبل، وأصبح جزءا لا ينفك، والجار النازل في القوم يحميه القوم ويكون لماله ونفسِه حرمة، فتشبيها لحرمته بحرمة «الهدِيّ» سمي به. ويُتشبث بالتوجيه نفسه في إطلاق العرب «الهديّ» على الزوجة، لأن عرضها محترم ومحصن من الانتهاك فزوجُها يموّن لها حياتها، ويحميها وعرضها من كل خطر، وأمّا استخدام الفعل، فيقال في الإبل أهديتُ هديا إلى البيت، ويقال في الزوجة أهديتُ العروس إلى زوجها.

مجلة الحبر: تقول العرب هدى بـ«هدْيِ» فلان إذا اتبعه في سيره وسمته، كيف تطبيق هذا المعنى مع المعنى الأصلي؟

الهدى: تطلق العرب «الهدْيَ» وتعني به السيرة والسمت والوقار، ذكرنا في بداية اللقاء: أن من معاني «الهدى» الإرشاد والتوجيه فالهادي والمرشد مقتدىً مطاع يتبعه الشعب في توجيهه، كما أنه يتبعه في سيرته وعادته، ولا محالة أن يكون حسن السمت ونبيل السيرة ، فسميت سيرته بـ «الهْدِي» لهذه المناسبة.

مجلة الحبر: إننا نجد في كتب اللغة استخدام مادة «هدى» بمعنى السكون القرار والبطء في الحركة، كيف يسلك هذا المعنى في سلك المعاني الأساسية؟

الهدى: نعم، لامرية في أن هناك استخدامات عديدة لمادة «هدى» بمعنى السكون والبطء في الحركة، يقال: ماهدى هدي مهزوم، أي: لم يسرع إسراع المنهزم. ويقال تهادت النسوة أو الإبل، بمعنى مشت متثاقلة في تمايل وسكون، وفي الحديث:

أن النبي ﷺ خرج في مرضه الذي مات فيه يهادى بين رجلين. معناه أنه كان يمشي بينهما يعتمد عليهما من ضعفه وتمايله

ويقال: وجئتُكَ بَعْدَ هَدْءٍ مِن الليل، وهَدِيٍّ منه أي سكون الحركة فيه. ويقال للراكِسِ «الهَادِي»: وَهُوَ الثَّوْرُ الساكن وَسَطِ البَيْدَر تَدُور حوله الثِّيرَانُ فِي الدِّاسة. والهادية: الصخرة الثابتة في الماء الجاري. فجميع هذه المزاولات تدور حول معنى السكون والقرار ، وهذا الاستخدام انحدر من «الهدْي» الذي هو بمعنى السمت والوقار؛ لأن هذا المعنى يسوده الهدوء والسكون في الحركة.

مجلة الحبر: شكرا جزيلا، حقا! لقد كان اللقاء ممتعا ونافعا، وأرجو أن قراءنا أعجبوا ونهلوا من إفاداتك اللغوية، أحسن الله إليكم.

قراءنا الكرام! أرجو أنكم تمتعتم واستفدتم من هذا اللقاء العلمي، نستأذنكم حتى اللقاء القادم مع ضيف جديد، ننتظر تعليقاتكم الرائعة واقتراحاتكم البناءة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

معالم الهدي في سيرة النبي المصطفى ﷺ

أ. حماد بن أحمد علي

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، مالكَ الزمنِ ويومِ الدين، الذي هيَّأ لهدايةِ الخلق، واصطفى من بينهم الأنبياءَ والأولياءَ والمتقينَ والمقرَّبين، والصلاةُ والسلامُ على أفضلِ الرسلِ وسائرِ الأنبياءِ والمرسلين، محمدٍ ﷺ وعلى آلهِ وأصحابهِ وأهلِ بيتهِ وأتباعهِ أجمعين، ومن سلك هديَهُ بإحسانٍ إلى يومِ الدين.

أما بعد: فإنَّ الاقتداءَ بشخصيّةٍ كاملةٍ راقيةٍ في التدبيرِ والأفكار، محفوظةٍ متجنِّبةٍ للمحظورات، بل معصومةٍ من تغلُّبِ الأهواء، أمرٌ مهمٌّ في تكوينِ نظامِ الحياةِ البشريّة. ولما كانَ هذا الأمرُ شأنًا تكوينيًّا وجانبًا أساسيًّا في نموِّ العباد وارتقائهم، هيَّأ اللهُ سبحانه وتعالى لذلك أفرادًا يقومون بمسؤوليّات تهدف إلى قِوامِ البشريّة وإصلاحِها، من حيث ما لها وما عليها. فكانوا مرجعَ الناسِ في مسيرةِ الحياة.ومن هم يا ترى؟ .. إنهم بلا شك الأنبياء والرسل، المبعوثون إلى الدنيا متمسّكين بأوامر الله وشريعته، قد ربّاهم الله وهيّأهم للبشرية. ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ٨١]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]. فكانت الأمم ولا تزال مطالَبةً باتباعهم.

وأفضلهم وأشرفهم، والسابق رفعةً وبغيةً، سيّدُنا وحبيبُنا محمدٌ ﷺ؛ به أشرقت شمس الهدى، وظهر الحق من الباطل كما يظهر الصبح من الليل. وهو الذي بعث الرجاء في قلوبٍ يائسة، كعودة الضرع بعد انقباضه حتى يمتلئ لبنًا دفّاقًا.

فيا حبَّذا لو كانت سيرته وسريرته حاضرةً في الأمة؛ وقد كانت، ودوام حضورها إنما يكون باتباع السلف الصالح، فقد قيل في ذلك: «سير السلف الصالحين جندٌ من جنود الله تُثبَّت بها القلوب».فينبغي لنا أن نقرأ وندرس قبل كل شيء سيرةَ رسولِ الله ﷺ الشريفة، ونتأمل مواقفه وأدواره، وكيفية تعامله مع شرائح الناس المتنوعة. وقد قرأتُ فيه، من حيث كونه معلِّمًا للأمة، كتابًا نافعًا للقارئ، وهو المسمى (**الرسول المعلِّم وأساليبه في التعليم**)، أحد المصنفات القيّمة للشيخ العلامة عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله.

فهو كتاب يجمع خصائل النبي ﷺ، وقد لخّصها في أربع نُكَت أساسية:

(١) كمال الخَلق (٢) كمال الخُلق (٣) فضائل الأقوال (٤) فضائل الأفعال

وقد استفدت من ذلك، وجمعتُه على صورة التشجير مع إضافات يسيرة، لتكون هذه الخصائص نُصب أعيننا، نسلكها في سائر أدوار حياتنا، فنثبت على مواقفنا حتى نصل إلى بغيتنا، كمن قصد سياحة الأرض فبُسِطت بين يديه خريطة الدنيا، فيسير بخطى العارف، لا يضل له طريق، ولا يغيب له مقصد.

وإليك أيها القارئ الكرام هذه الخصال والفضائل:

خصائص الرسول ﷺ وخصاله

١. كمال الخَلق

- السكينةُ الباعثةُ على الهيبةِ والتعظيم، والداعيةُ إلى التقديم.
- الطلاقةُ الموجبةُ للإخلاصِ والمحبّة، الباعثةُ على المصافاةِ والمودّة.
- حسنُ القبولِ الجالبُ لممايلةِ القلوب، لتكون النفوسُ منه قريبةً مستأنسةً، وله مطيعة.
- ميلُ النفوسِ إلى متابعتِه، وانقيادُها لموافقتِه، وثباتُها على شدائدِه ومصابرته.

وهذه الأربع من دواعي السعادة، وقوانين الرسالة، وقد تكاملت في نفسه الشريفة ﷺ.

٢. كمال الخُلُق

- رجاحةُ العقل، وصِحّةُ الوهم، وصدقُ الفراسة.
- ثباتُه ﷺ في الشدائد، وصبرُه على البأساءِ والضرّاءِ.
- زهدُه ﷺ في الدنيا، وإعراضُه عنها، وقناعته بالبلاغ منها.
- تواضعُه ﷺ للناس، وخفضُ جناحه لهم، ولينه

معهم.

- حلمُه ﷺ ووقارُه، عن طيشٍ يهزّه؛ فكان يصبر دائمًا عند الصدمة الأولى.
- حفظُه ﷺ للعهد، ووفاؤه بالوعد.

٣. فضائل الأقوال

- أُوتي ﷺ من الحكمة البالغة، ومن العلوم الجمّة الباهرة، ما عجز عنه العربُ والعجم.
- حفظه ﷺ لما أطلعه الله عليه من الأحوال السابقة، من خلق الكون والأمم الماضية.
- إحكامُه ﷺ لما شرع، بأظهر دليل، وأوضح توجيه.
- اهتمامُه ﷺ بمحاسن الأخلاق، والأمرُ بها.
- وكان ﷺ واضحَ البيان عند السؤال.
- حُفِظ وعُصِم من التحريف في القول، ومن الكذب، وغير ذلك من المحظورات.
- وكان ﷺ معتدلًا في تنسيق الكلام؛ فلا اقتصارٌ فوق الحاجة، ولا حصرٌ مُحجِّم، بل كان كلٌّ ما يتلفظ به بين الكفاية والحاجة.
- وكان ﷺ أفصحَ الناس لسانًا، وأوضحَهم بيانًا، وأوجزَهم كلامًا، وأجزلَهم ألفاظًا، وأصحَّهم معاني، غير متكلِّفٍ ولا متعسِّف.

٤. فضائل الأعمال

- حسنُ السيرة وصِحّةُ السياسة؛ إذ كان ﷺ ينظر إلى العواقب.
- جمعَ في معاملة الأصحاب بين رغبةٍ لمن استمال، ورهبةٍ ممن استطاع.
- وكان ﷺ عادلاً فيما شرع، منزّهًا عن الغلو والتقصير.
- ولم يملّ بأصحابه إلى الدنيا ولا إلى رفضها، بل حثّ على الاعتدال.
- تصدّيه ﷺ لمعالم الدين ونوازل الأحكام، حتى أوضح وأجلى للأمة ما لها وما عليها.
- انتصابُه ﷺ لجهاد الأعداء وخصوم الدين.
- وكان ﷺ موصوفًا بالشجاعة في حروبه مع الأعداء، والنجدةِ في مصابرة عدوه.
- ومنحه الله السخاءَ والجودَ، فكان ﷺ في ذروتهما، حتى جاد بكل موجود، وآثر بكل مطلوب ومحبوب.
- وقدّم عند الشدائد نفسَه وأهلَه، وعند الرخاء أصحابه.

وختامًا، إننا ما دمنا متمسكين بمآثر الرسول ﷺ وسيرته المنيرة العطرة، **فستكون** حياتنا سعيدة، و**مآلنا** ناجحًا؛ فنحن المسؤولون عنها عند **أعلم السائلين** عز وجل.

وأسأل الله أن يتقبل **مدادي هذا** بما أجريته لنفس شريفة **تفنى في وصفها البحار، لكن المقام يطلب المزيد**، وأن يوفقني وإياكم لاتباع سيد الأنام ﷺ.

محمدٌ بشرٌ وليس كالبشرِ
بل هو ياقوتٌ والناس كالحجرِ

لمحات من حياة سماحة الشيخ سليم الله خان

رحمه الله تعالى رحمة واسعة

أ. رب نواز

اسمه ومولده ونشأته

هو الإمام العالم الجليل، والمحدث الكبير، العلامة الشيخ سليم الله خان بن عبد العليم خان بن عبد الحميد خان بن عبد المجيد خان رحمهم الله جميعا .

ولد في الخامس والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) عام ألف وتسعمائة وستة وعشرين (٢٥ / ١٢ / ١٩٢٦م) الموافق للخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ألف وثلاثمائة وخمس وأربعين (١٥ / ٦ / ١٣٤٥هـ) في قرية «حسن بور لوهاري» من مديريَّة «مظفر نكر» قرب ديوبند في الهند، وهي القرية التي تعيش فيها قبائل البختون، ومنها قبيلة تسمّى بـ «آفريدي» والشيخ سليم الله خان رحمه الله ينتمي إليها .

وكان الشيخ رحمه الله ينتمي إلى أسرة متوسطة اقتصاديًا، وكانت عمومته تعتمد في كسب المعاش على حِرفة الطبابة، علمًا أنَّ دراسة الطب كانت في ذلك الزمن من الكتب العربيَّة، ولذلك كان معظم أهل العلم الذين درسوا العلوم الدينيَّة أطباء يومئذ؛ فإنَّهم كانوا يتناولون دراسة الطب رأسًا كغيرها من العلوم.

نشأته العلمية

قد بدأ دراسته من مدرسة «مسلم اسكول» في زمن الاحتلال البريطاني في القرية نفسها، واستمر في دراسته حتى أكمل الابتدائية (پرائمرى) هناك، وقد درس خلالها شيئًا من الفارسيَّة على يد الأستاذ حسن رحمه الله وكان رجلا تقيًا ذكيًا بارعًا في الفارسيَّة، وهو أول شيوخه، وقد تلقى القرآن الكريم من الأستاذ عبدالله المعروف بـ «الله بنده» آنذاك، وكان يأتي إلى بيته بعد المغرب يوميًا.

وعند ما أكمل الشيخ سليم الله خان الدراسة الابتدائيَّة، فسافر إلى مدينة مظفر نكر (جلال آباد) ليستمر في الدارسة الدينيَّة، والتحق بجامعة «مفتاح العلوم» التي أسَّسها فضيلة الشيخ بقية السلف مولانا مسيح الله خان رحمه الله تحت إشراف حكيم رالأمة الشيخ أشرف على التهانوي رحمه الله، وقد درس الشيخ فيها الكتب المنهجيَّة من الصرف، والنحو، والفقه، والحديث، ونحوها، وأنهى الدراسة المتَّبعة في شبه القارة الهنديَّة في سنتين فقط، وذلك لفرط ذكائه، وغاية فطنته بينما الطالب العادي يكملها في أربع سنوات.

ثم التحق بجامعة «دارالعلوم ديوبند» (أزهر الهند) سنة ألف وتسع مائة واثنتين وأربعين للميلاد (١٩٤٢م)،وهنالك أخذ العلوم الدينيَّة كالتفسير، والحديث، والفقه، والعلوم الأخرى من كبار شيوخها الذين في مقدمتهم فضيلة الشيخ السيد حسين أحمد المدني صاحب النفس الزكية، والقوة القدسية، والهمة العالية في شدة المجاهدة، والتمسك بالدين، وشيخ الأدب والفقه العلامة الشيخ إعزاز علي صاحب شخصية قوية ذات عزم، وسماحة الشيخ مولانا محمد إدريس الكاندهلوي شيخ التفسير صاحب «معارف القرآن»، و«التعليق الصبيح على مشكاة المصابيح»، فواظب الشيخ سليم الله خان رحمه الله على الجد والاجتهاد في طلب العلم حتى أنهى دراسته، وتخرَّج منها سنة ألف وتسع مائة وسبع وأربعين للميلاد (١٩٤٧م)، ونال الشهادة العالميَّة بدرجة عالية .

تدريسه في مفتاح العلوم (الهند)

فلما تخرّجَ الشيخ سليم الله خان رحمه الله من «دارالعلوم ديوبند» عاد إلى المدرسة نفسها التي كانت تعتبر نقطة البداية لدراسته، وعيّن مدرسًا في مدرسة «مفتاح العلوم» التي تقع في منطقة جلال آباد (الهند)، وقد مارس مهنة التدريس فيها تحت إشراف شيخه الشيخ مولانا مسيح الله خان رحمه الله ثماني سنين.

ولقد بذل الشيخ سليم الله خان قصارى جهوده في

التدريس حتى ذاع صيت المدرسة في آفاق الهند كلها انتشار النار في الهشيم، وأخذ الطلاب يَتوافدون عليها من كل مكان.

تدريسه في دارالعلوم الإسلامية (تندو الله يار)

لا غرو أنه تيسّر للشيخ سليم الله خان التدريس في مدارس كبرى، وجامعات مختلفة، ومنها تدريسه في جامعة «دارالعلوم الإسلامية تندو الله يار» الواقعة بـ«أشرف آباد» من أعمال (تندو آدم / السند) وهي المدرسة التي أنشأها شيخ الإسلام الشيخ شبير أحمد العثماني في باكستان لتكون على غرار دار العلوم ديوبند وبعد ما هاجر الشيخ من الهند إلى باكستان عُيِّن كمدرس فيها، وبدأ يدرّس أهم كتب الحديث وطال زمن تدريسه بها إلى بضع سنوات، ومن المعلوم أنَّ الله عز وجل رزقه مكانة مرموقة، ومنزلة ملموسة في ميدان التعليم والتدريس، وقد عُرِفَ بين أوساط الطلبة لشهرته، ومهارته في تدريس الكتب المهمة الصعبة.

تدريسه في دار العلوم كراتشي والجامعة الإسلامية بنوري تاون

ولَمّا غادر الشيخ سليم الله خان رحمه الله دار العلوم الإسلامية (تندو الله يار) عُيِّن مدرّسا في «جامعة دار العلوم كراتشي»، وقام بتدريس الحديث والتفسير والفقه والفلسفة والأدب العربي واستمرّ حتى قدّم الخدمات التدريسيّة الجليلة فيها زهاء عشر سنوات، وحينئذ بدأ بتدريس سنة كاملة بجامعة العلوم الإسلامية بنوري تاون كراتشي على إصرار رئيس الجامعة العلامة محمد يوسف بنوري رحمه الله ، ثم لم يتمكن له الجمع بين المركزين فاكتفى بالأول منهما.

تأسيس الجامعة الفاروقيّة:

لمّا استقلت دولة باكستان، وبقيت معظم المدارس، والجامعات في الهند، فكان عددها في باكستان قليلاً جداً، والشعب المسلم كان بحاجة ماسة إلى المدارس الدينيَّة، ولكن أبناء جامعة دار العلوم ديوبند في باكستان لم يكونوا غافلين عن واجبهم تجاه إنشاء المدارس، والمساجد، والمراكز العلميَّة في هذه الدولة الفتيَّة حتى بلغ عددها اليوم إلى الآلاف المؤلَّفة.

وبناءً على ذلك أُسِّست الجامعة الفاروقية ٢٣/ يناير/ ١٩٦٧م الموافق ١٣٨٧هـ في منطقة شاه فيصل بمدينة كراتشي، وقام بإنشائها الشيخ الكبير العلامة المحدث الشهير أستاذ العلماء سليم الله خان رحمه الله ونخبة مخلصة واعية من العلماء الكبار المخلصين كفضيلة الشيخ المفضال العلامة محمد يوسف البنوري، والمفتي العام لجمهوريَّة باكستان الإسلاميَّة سابقًا الشيخ المفتي محمد شفيع، وخطيب الإسلام الشيخ مولانا احتشام الحق التهانوي ـ رحمهم الله تعالى جميعاً ـ، وقد ساعد في تأسيس هذه الجامعة الشيخ الصالح أبو معاوية الغزنوي، وأهل هذه المنطقة، وأعضاء لجنة «السيرة النبوية» على صاحبها ألف تحية وسلاما (سيرت كميٹی)؛ فنقدر جهودهم، ومساعيهم الجميلة، فجزاهم الله تعالى أحسن الجزاء، وتغمَّدهم بغفرانه وعفوه.

ومن أهم الميزات التي يمتاز بها قسم التعليم بالجامعة الفاروقيَّة بكراتشي، أنَّها بالغت في الاعتناء بالتعليم باللغة العربيَّة وتدريسها، ووضعت لها قسمًا خاصًّا باسم «معهد اللغة العربية والدراسات الإسلاميَّة» حيث يُعْتَنى بالتعليم والتدريس فيه من الصف الأول إلى الصف السادس وفق المنهج المتداول في بلادنا باللّغة العربيّة، وقد استطاع هذا القسم المبتكر في باكورة عهده بالتعليم أن يوفِّر فرصة ذهبيَّة للطلبة المولَعِين باللغة العربيَّة.

تدريسه في الجامعة الفاروقيَّة

لا غضاضة أن الشيخ سليم الله خان رحمه الله كان خير مصداق لحديث الرسول ﷺ: «مَن يرد الله به خيرا يفقّه في الدين»، قد قضى عمرَه في تدريس العلوم الإسلاميَّة، واشتغل بتدريس الحديث الشريف إلى سبعين عامًا في مدارس مختلفة، وقد وقف خدماته التدريسيَّة في الآونة الأخيرة من حياته للجامعة الفاروقيّة، وقام بتدريس معظم العلوم والفنون المختلفة فيها ، ودرَّس صحيح البخاري أكثر من خمسين سنة، فتجلت مواهبه في فن الحديث حتى لُقِّبَ بأستاذ المحدِّثين في عصره، وتشهَدُ له بذلك مؤلَّفاته في الحديث، وخاصة كتابه «كشف الباري عما في صحيح البخاري».

خصائص ومزايا تدريس الشيخ سليم الله خان رحمه الله :

١ - منحه الله تعالى الفصاحة والبلاغة في الكلام، فإذا تكلم أوضح، وإذا درَّس أفهم، وله كلام متواصل غير منقطع آخذ بعضه ببعض، مهما طال إلى ساعات، ولم يكن حشوًا مملًّا للسامعين، ولا وجيزًا مخِلًّا.

٢ - كان يختار الأساليب البسيطة السهلة في إفهام أصعب الدروس حتى يجعلها كلها يسيرة سهلة.

٣ - كان قد أوجب على من كان يقرأ عليه عبارة الحديث من الطلاب أن يوصل إسناد الحديث

إلى الإمام البخاري بهذه الجملة: وبالسند المتصل منا إلى الإمام الحافظ الحجة أمير المؤمنين في الحديث أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن بردزبة البخاري رحمه الله تعالى.

٤ - ومن أحسن عاداته في تدريس «مشكاة المصابيح» أنَّه كان يُملي على الطلبة مقدمةً محقَّقَةً مفصلة في علم الحديث.

٥ - وكان من أسلوب في تدريس الحديث أنَّه كان يسلِّط الضوء أوَّلاً على تفاصيل المسألة الواردة في الحديث وسائر جوانبها مع بيان أقوال الفقهاء، وذكر المذاهب المختلفة فيها، وأخيرا كان يبين ما رَجَحَ عنده، ومال إليه قلبه من الأقوال والمذاهب.

٦ - وكان يُبيِّن تراجم رواة الأحاديث، والكلام في سند الحديث، وكذا التحقيقات اللغويَّة، ويستدل بالأحاديث الأخرى غير المذكورة في الكتاب نفسه، وبالخاص كان يذكر الأجوبة عن الإيرادات الواردة على الأحاديث.

٧ - كان يهتم ببيان ترجمة الباب بيانا تحقيقيًّا مع ذكر الربط بين السابق واللاحق، وإذا لم يكن للباب ترجمة، عيَّن له ترجمةً ملائمةً للباب.

٨ - وأحيانا يذكر الإعراب النحوي للحديث إذا احتمل الحديثُ وجوهًا متعددة، أو يصعُب على الطالب ظاهر لفظ الحديث.

٩ - وبعد الفراغ من شرح الحديث بكامله يعيد معنى الحديث بوضوح كامل لتيسير فهم الحديث.

ومن اهتماماته أثناء التدريس أنه كان يركِّز دائمًا على تربية الطلاب خلقيًّا وسلوكيًّا، وفي ذلك قد يذكر للطلبة بعض القصص المفيدة، والنصائح النافعة .

وفاته:

توفّي الشيخ سليم الله خان – نوّر الله مرقده – ليلة الاثنين في السابع عشر من ربيع الآخر١٤٣٨هـ الموافق ١٥/ ١/ ٢٠١٧م بعد ما عاش ستا وتسعين سنة مشتغلا بالتدريس.

وقد شارك في جنازة الشيخ الراحل خلقٌ كبيرٌ من كبار العلماء، وطلبة المدارس الدينيّة، وعامة الناس، وغيرهم من مختلف طبقات الشعب، ثم دفن بعيون باكية، ودموع سائلة، في الفرع فيز ٢ (المقر الثاني) بمدينة كراتشي فنسأل المولى أن يرحمه، ويسكنه فسيح جناته.في الفرع فيز ٢ (المقر الثاني) بمدينة كراتشي فنسأل المولى أن يرحمه، ويسكنه فسيح جناته.

سلسلة : قبس من سيرة النبي الكريم ﷺ (٣)

أ. سعيد أيوب

"اذهبوا.. فأنتم الطلقاء!"

في السنة الثامنة من الهجرة نصر الله عبده ونبيه محمدا ﷺ على كفار قريش، ودخل مكة فاتحا منتصرا، وأمام الكعبة المشرفة وقف جميع أهل مكة، وقد امتلأت قلوبهم رعبا وهلعا، وهم يفكرون فيما سيفعله معهم رسول الله ﷺ بعد أن تمكن منهم، ونصره الله عليهم، وهم الذين آذوه، وأهالوا التراب على رأسه، وحاصروه في شعب أبي طالب ثلاث سنين، حتى أكل هو ومن معه ورق الشجر، بل وتآمروا عليه بالقتل ﷺ، وعذبوا أصحابه أشد العذاب، وسلبوا أموالهم وديارهم، وأجلوهم عن بلادهم، لكن رسول الله ﷺ قابل كل تلك الإساءات بموقف تربوي كريم في العفو ـ يليق بمن أرسله الله رحمة للعالمين ـ ، فقال لهم : «**ما ترون أني فاعل بكم ؟!**»، قالوا : أخ كريم، وابن أخ كريم، قال : «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»

ذكره الإمام أبو يوسف رحمه الله في الرد على سير الأوزاعي (ص ١٠٨) ولم يسنده، ونقل عنه الإمام الشافعي رحمه الله في الأم (٣٨٢/٧).

نفحات الروح في خشوع الصلاة

أ. نصيب الرحمن

الحمد لله الذي جعل الصلاة عماد الدين، وشرف بها المؤمنين، وجعلها صلة بين العبد ورب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين، الذي كانت قرة عينه في الصلاة، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الصلاة هي العلامة الكبرى بعد كلمة التوحيد على إسلام الإنسان، فهي أوضح دليل على إيمانه، وأظهر شعار لدينه، فإذا نطق العبد بالشهادتين، كانت أول عبادة يطالب بها بعد ذلك إقامة الصلاة في أوقاتها، إذ هي الفريضة التي لا تسقط عن أحد من المسلمين ما دام عاقلا بالغا، فالصيام إنما يفرض في شهر واحد من السنة، والزكاة إنما تجب على من ملك النصاب بعد الحول، والحج على المستطيع مرة في العمر، أما الصلاة فواجبة على كل مسلم ومسلمة، حاكم أو محكوم، غني أو فقير، صحيح أو مريض، مقيم أو مسافر، في كل يوم وليلة خمس مرات؛ ولهذا كانت الصلاة شعار الإيمان وعلامة الإسلام الباهرة. وكان أول ما يعلمه رسول الله ﷺ للداخلين في الإسلام بعد النطق بالشهادتين هو الصلاة، لأنها عمود الدين، وواسطة الصلة بين العبد وربه.

وقد فرضت الصلاة في ليلة المعراج، فكانت منحة ربانية عظيمة لهذه الأمة، وفيها قال النبي ﷺ حين سئل عن أفضل الأعمال: «الصلاة على وقتها»[1]. وقال ﷺ أيضا: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر»[2]. وكان رسول الله ﷺ يجد في الصلاة قرة عينه، وراحة قلبه، حتى كان يقول: «جعل قرة عيني في الصلاة»[3]. وكان ﷺ إذا حان وقت الصلاة نسي كل ما سواها، وتغير وجهه من الهيبة والخشوع، قد أقبل على الله تعالى بوجهه وقلبه، فهكذا كان حاله ﷺ؛ إذا نزلت به شدة أو حزبه أمر، التجأ إلى الصلاة، لأنها ملاذ الأنبياء ومفزع الصالحين. الصلاة راحة المؤمن وأنس العابدين ، كان السلف الصالح إذا دخلوا في الصلاة خشعت قلوبهم، وسكنت جوارحهم، واستشعروا عظمة من يقفون بين يديه. إن الصلاة ليست عبادة فحسب، بل هي مدرسة الإيمان، وتربية القلب، وميزان العبودية، من حافظ عليها بخشوع وطمأنينة، فقد ذاق حلاوة الإيمان، ومن ضيعها فقد خسر صلته بربه.

الصلاة ليست عبادة روحية فحسب، بل هي جامعة المنافع، تجمع بين طهارة الجسد ونقاء الروح، وبين راحة القلب وصلاح الحال، وهي أساس رضا الله تعالى، وسر الفلاح في الدنيا والآخرة؛ فهي عبادة تربط بين الدين والدنيا، وتطهر البدن والنفس معا، حتى قال العلماء: لو لم يكن في الإسلام عبادة تنهى عن الفحشاء والمنكر مثل الصلاة، لكانت كافية في تهذيب الإنسان وإصلاح المجتمع، وقد جعل الله تعالى الطهارة مفتاحا للصلاة، فقال سبحانه في وصف المؤمنين الذين يعتنون بالنظافة بعد قضاء الحاجة ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة:١٠٨]

كان الصحابة رضي الله عنهم يستنجون بالحجارة ثم بالماء ليبلغوا غاية الطهارة، وقد أثنى الله عليهم بهذه الآية الكريمة. وجاءت الأحاديث النبوية تشدد على الطهارة من النجاسة، لا سيما من البول، فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرّ النبي ﷺ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»[4]. فدل الحديث على أن التهاون في الاستبراء من البول سبب لعذاب القبر، وأن

(١) رواه أحمد في المسند (رقم ٣٨٩٠).

(٢) رواه الترمذي (رقم ٤١٣)، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٣) رواه أحمد في المسند (رقم ١٢٢٩٣).

(٤) رواه البخاري (رقم ٢١٨).

إهمال التنزه منه من الكبائر التي يجب الحذر منها. ولهذا ينبغي للمسلم أن يحرص بعد قضاء حاجته على الاستنجاء الكامل بالحجارة أو المنديل الورقي أو الماء، حتى يتيقن من زوال النجاسة، ولا يصلي حتى يطمئن إلى طهارته. ثم إذا تطهر العبد وأقبل إلى الصلاة خاشعا مطمئنا، فإنه يكون قد جمع بين نظافة البدن ونقاء القلب، فيصبح أهلا لمناجاة ربه جل جلاله.

ومن تمام الطهارة والعبادة أن تؤدى الصلاة على سنة رسول الله ﷺ، بتؤدة وخشوع وتعديل الأركان. لأن الخشوع في الصلاة سر من أسرار الإيمان، وميزان لصفاء القلب وصدق العبودية، فمن صلى بخشوع وسكينة فقد ذاق لذة المناجاة، وارتشف من أنوار القرب إلى الله تعالى، ومن صلى بلا خشوع فإنما أدى حركات خاوية من الروح، لا ترفعه في مقام الإحسان. كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة تغير وجهه من هيبة الله، وخشع قلبه، وسكنت جوارحه، حتى قال الصحابة رضي الله عنهم: كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.[٥] فكانت له راحة وطمأنينة، وملجأ في الشدائد، كما كانت للأنبياء من قبله، وهكذا كان السلف الصالح إذا دخلوا في الصلاة خشعت قلوبهم وسكنت أعضاؤهم، واستشعروا عظمة من يقفون بين يديه. فالصلاة ليست مجرد أداء لركوع وسجود، بل هي حضور قلب، وخضوع نفس، وذوبان روح في محبة الله تعالى، ومن تهاون في الطمأنينة أو أسرع في القراءة والركوع والسجود، فقد ضيع روح الصلاة، وأخل بركن عظيم من أركانها[٦].

ومن أكبر الآفات المعاصرة الهرولة في القراءة وفقد الطمأنينة في الأركان؛ فبعض المصلين يقرأ سورة الفاتحة والتسبيحات بسرعة مفرطة، ويُهمِلُ الطمأنينة في الركوع والسجود والجلسة، مع أن النبي ﷺ بين أن من أقام الصلاة فإنه يناجي ربه: «إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه»[٧]. وأي سر أعظم من أن تكون الصلاة محادثة بين العبد وربه؟! وقد جاء في الحديث القدسي الشريف: عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله: أثنى علي عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال الله: مجدني عبدي، وفي رواية: فوض إلي عبدي، وإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذه بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[٨].

فيتجلى لنا أن في الصلاة للحبيب حقا خاصا، وللمتعبد سعة في السؤال والدعاء إن أحسن القوم جلسهم وتضرعهم، وعن خطر التفريط في الطمأنينة جاء الوعيد الشديد من التهاون في أداء الصلاة بلا طمأنينة، ومن أعظمها حديث أبي قتادة -رضي الله عنه عنه-، قال: قال رسول الله ﷺ: «أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته» قالوا: يا رسول الله، وكيف يسرق من صلاته؟، قال: «لا يتم ركوعها ولا سجودها»[٩]. فانظر كيف سمى النبي ﷺ من يخل بركن من أركان الصلاة «سارقا»، بل «أسوأ الناس سرقة»، لأنه يسرق من أعظم الأمانات، أمانة العبودية بين يدي رب العالمين.

وروى الإمام أحمد عن الحكم بن عمير الثمالي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرئ يصلي صلاة لا يتم ركوعها ولا سجودها إلا كانت تلك الصلاة مثل الثوب الخلق، يضرب بها وجهه، تقول: ضيعك الله كما ضيعتني»[١٠].

يا له من وعيد شديد! صلاة كان ينبغي أن ترفع صاحبها، فإذا بها تطرح على وجهه وتلعنه، لأنها لم تؤد كما أراد الله ورسوله ﷺ. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أن رسول الله ﷺ دخل المسجد، فدخل رجل فصلى، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ، فقال: «ارجع فصل، فإنك لم تصل» فأعاد الرجل صلاته ثلاث مرات، ثم علمه النبي ﷺ أركان الطمأنينة قائلا: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ

(٥) رواه أبو داود: (١٣١٩)

(٦) وقد كان شيخنا ومربينا، الدكتور أمجد علي -رحمه الله تعالى- أفنى حياته في إعلاء كلمة الله ونشر العلم والدعوة داخل البلاد وخارجها، ومعالجة الناس بالطب النبوي والحجامة، والغذاء، فكان له أثر كبير في شفاء كثيرين بإذن الله، وقد عشق العربية وأحبها حبا جما، فأسس «مدرسة ابن عباس» لتعليم العربية والعلوم الشرعية، فكانت منارة للتعليم واللغة، وكان يرى أن إحياء العربية هو طريق إحياء القرآن والصلاة والخشوع، وفي آخر أيامه كان يحزن على حال الأمة إذ يقول: قسم من المسلمين لا يصلي أصلا، وقسم يصلي بلا خشوع ولا طمأنينة، وكان يوصي بتأدية الأركان رويا، وإطالة القيام والركوع والسجود وإتمام القومة والجلسة استحضارا لسنة النبي ﷺ وإكراما لرب العالمين، وكان يحث طلابه وخواصه والعامة على أن يطيلوا القيام والركوع والسجود، وأن يؤدوا القيام والقعود بتمام الطمأنينة، وأن يجعلوا للصلاة وقارا وهيبة، ولا يؤدوها استعجالا وحركة بلا حضور.

(٧) رواه البخاري: (رقم: ٤٠٥).

(٨) رواه مسلم (رقم: ٣٩٥).

(٩) رواه ابن ماجه، (رقم: ١٣١٣).

(١٠) رواه أحمد، (رقم: ١٨٤٢٣).

ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعا، ثم ارفع حتى تعدل قائما، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا، وافعل ذلك في صلاتك كلها»[11]. قال الإمام النووي رحمه الله : «في هذا الحديث دليل على أن الطمأنينة ركن من أركان الصلاة، لا تصح بدونها»[12].

إن الصلاة الخاشعة ليست مجرد أداء لحركات مكررة، بل هي تجل لكمال العبودية، والخضوع لله عز وجل، وراحة تنعش النفوس ودواء للروح ولقاء مع الله، وقرب من الله عز وجل، وميزان الإيمان في القلب، ومن عجل فيها، أو فرط في أركانها، فقد حرم نفسه من لذتها ونورها، ومن حافظ عليها بخشوع وطمأنينة فقد ذاق نعيم القرب من الله كانت له نورا في الدنيا، ونجاة في الآخرة. وكان رسول الله ﷺ يقول لبلال رضي الله عنه: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها»[13]. فلنحافظ على صلاتنا، ولنؤدها كما أمرنا، بخشوع وطمأنينة، لعلها تكون لنا نورا في الدنيا ونجاة في الآخرة.

إن من أسمى أمانينا اليوم أن تعود مساجدنا عامرًا بالمصلين، كما كان مسجد النبي ﷺ عامرة بالأعمال الدعوية، والخشوع والإيمان، يسارع الرجال إلى الصفوف الأولى، وتصلي النساء في بيوتهن بخشوع وإخلاص. فلنجعل غايتنا أن لا يبقى في بيوتنا، ولا في أحيائنا، مسلم واحد تارك للصلاة، ولنبدأ بأنفسنا وأهلنا وجيراننا، ولنذكر الناس بلطف وكلمة طيبة: «هيا إلى الصلاة، هيا إلى الفلاح» حتى نكون – بإذن الله – أمة تقيم الصلاة كما أحبها رسول الله ﷺ، فإذا صلحت الصلاة، صلحت الحياة، وإذا عمرت المساجد، نزلت الرحمات والبركات. فلنحرص أن تكون صلاتنا قائمة كما أحبها رسول الله ﷺ بخشوع كامل، وطمأنينة صادقة، وإقبال على الله بقلوب عامرة بالإيمان، حتى تكون لنا نورا في الدنيا ونجاة في الآخرة، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المحافظين على الصلاة، الخاشعين في أدائها، الذين يجدون فيها راحة قلوبهم وسكينة أرواحهم، وأن لا يبقى بيننا مسلم مضيع للصلاة.

اللهم اجعل بيوتنا ومساجدنا عامرة بذكرك، وأنوار طاعتك، ولا تدع بيننا مسلما مضيعا لصلاته، واجعلنا من الذين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا بوقار وطمأنينة، وذكر لك وشكر لك وحسن عبادة لك، اللهم تقبل منا صلاتنا، واغفر لنا تقصيرنا فيها، ووفقنا لإقامتها كما أحببت ورضيت، آمين يا أرحم الراحمين.

(١١) رواه البخاري: (رقم: ٧٥٧).

(١٢) شرح النووي على صحيح مسلم، ج ٤، (ص:١٠٧).

(١٣) رواه أبو داود (رقم: ٤٩٨٥) .

الشيخ أنور شاه الكشميري رحمه الله

ودأبه في المطالعة

قال الشيخ يوسف البنوري رحمه الله:

«لم يكن دأبه في المطالعة كأكثر علماء هذا العصر من أن يُطالعوا الكتب

عند الافتقار إليها في الفتوى أو التأليف أو التدريس، فيُراجِعُون فيها يحتاجون إليها من ذلك الموضوع خاصة، أو يَتَفَقَّدُون ما أرادوه من مقاله، بل كان دأبه في المطالعة أنه كلما تيسر له كتاب، مخطوطًا كان أو مطبوعًا. سقيمًا كان أو سليمًا، في موضوع علمي، أي موضوع كان، من أي مصنف كان، فيأخُذه ويُطالعه من أوله إلى الآخر بتمامه، من غير أن يُبقي شيئًا أو يذر، نعم، كان جُلُّ جُهْدِه ومسعاه في أن يطالع كتب المتقدمين، ثم كتب أكابر المحققين من القرون الوسطى، رحمه الله تعالى» .

وقال أيضًا: «ومن العجائب – والعجائب جَمَّةٌ ـ أن الشيخ رحمه الله لم يكن من دأبه المطالعة بالليل لِما يدرسه بالنهار، كما هو دأب عامة المدرسين، فلم يكن يُطالع لشيء مما كان يُلقيه في الدروس، حتى سمعت منه : «أني ما طالعت الكتاب الذي يُقرأ عليَّ في عمري قط فقوة الحافظة كانت أغنته عن ذلك، فكفاه ما طالع في بدء عمره، وأغناه الصباح عن المصباح، لا أنه كان يلحقه الوَنَى أو الكَسَلُ أو المَلَالُ في المطالعة، بل جميع أوقاته كانت عامرة بمطالعة الأسفار، وزير المحققين .

نعم قد كان يُزوّر في نفسه هنيهة لئلا ينتشر الكلام ولئلا يتسع مَجَالُ البحث كثيراً، وليكون ما يُلقيه منضبطًا محدوداً حتى يستطيع المستمعون والمستفيدون أن ينهضوا بأعبائها، ولولا ذلك لأعجز القوم عن التلقي، فإنه كيف يُسَدُّ البحر الزخار، وكيف يُوكا على العيون الثرثارة».

نفحة العنبرللشيخ يوسف البنوري رحمه الله ، ص ٦٣.

المؤمن كالغيث

أ. محمد كامران

المؤمن كالغيث أينما وقع نفع، يَألف القلوب فتأنس به، ويألف الأرواح فتسكن إليه، فحقيقته أنه يفيض بالخير على من حوله.

قال رسول الله ﷺ: «المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير في من لا يألف ولا يُؤلف، وخير الناس أنفع للناس». (١)

إذن، هذا الحديث ليس مجرد وصف فحسب، بل هو بيانٌ عن حقيقة كل مؤمن كائنًا من كان وحيث كان. وميزانٌ يُوزن به المرء في الخير والنفع.

ونجد لذلك مثالًا حيًّا في السلف فقد كانوا يهتمون به اهتمامًا بالغًا في تعميم الخير، وإعانة المعدوم، وإغاثة الملهوف، وتلبية المضطر.

وهذا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما إنه كان معتكفًا في مسجد رسول الله ﷺ فأتاه رجلٌ فسلَّم عليه ثم جلس.

فقال له ابن عباس: يا فلان، أراك مكتئبا حزينًا.

قال: نعم، يا ابن عم رسول الله ﷺ لفلانٍ عليَّ حقٌّ، لا وحرمة صاحب هذا القبر ما أقدر عليه.

قال ابن عباس: أفلا أُكلمه فيك؟ قال: إن أحببت.

قال: فانطلق ابن عباس، ثم خرج ابن عباس من المسجد، فقال له رجل: أنسيت ما كنت فيه؟

قال: لا، ولكني سمعتُ صاحب هذا القبر، والعهد به قريب - فدمعت عيناه -، وهو يقول:

من مشى في حاجة أخيه وبلغ فيها، كان خيرًا من اعتكاف عشر سنين، ومن اعتكف يومًا ابتغاء وجه الله جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق أبعد ما بين الخافقين. (٢)

يا أخي العزيز: الآن حان دورك أن تفهم أن المؤمن لا يعيش لنفسه فقط، بل هو كالغيث الذي يروي ظمأ الأرض دون أن ينتظر جزاءً أو شكورًا. اغرس في كل قلب بذرة أمل، ولكن يجمع شتات النفوس بكلمة طيبة أو فعل كريم. وتذكّر: أن خيرك لا يُقاس بحجم ما تأخذ، وما تحتويه نفسك فقط، بل بمدى ما تعطي، وما تتركه خلفك من أثر.

المؤمن الحق هو من يترك أثرًا عميقًا في كل درب يسلكه، أثرًا لا يُمحى، لأنه نُقش بحروف الإيمان والإخلاص، دون أن تشوبه شائبة.

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (رقم ٥٧٨٧).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (رقم ٣٦٧٩).

الحلقة (1)

الأدبُ عنوان الكمال

آداب تتصل بحياة المسلم أوثق اتصال

تلخيص وترتيب

أ. أبو الفاتح حمزة نذير

لخَّصت هذه الآداب من كتاب «من أدب الإسلام» للعلامة البحَّاثة النقَّادة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله، الذي أودع كتابه، كعادته، غررَ النقول، وبرهن كل أدبٍ بالأحاديث النبوية أو بآثار الصحابة أو بأقوال السلف وآدابهم، فعليك بمطالعة هذا الكتيِّب النافع الماتع السهل الخفيف، فإن فيه العلم الكثير والأدب الجم.

إن للإسلام الحنيف آدابًا وفضائل تدخل في كل شأنٍ من شؤون الحياة، وتشمل الكبير والصغير، والرجل والمرأة؛ لأنهما يكونان المجتمع المسلم، وبهما يُعرَضُ الإسلام ويُعرَف. وقد دعا الإسلام إلى التحلي بتلك الآداب وحضَّ عليها، لأنها تُكمِّل الشخصية المؤمنة، وتزيد في جمال سلوك المسلم، وتُعزِّزُ محاسنه، وتُحبِّبُ شخصيته، وتُدنيه من القلوب والنفوس.

وليس معنى تسميتها (آدابًا) أنها على طرف من الحياة والسلوك يُخيَّر المسلم بين فعلها وتركها، أو أن فعلها أولى. قال الإمام القَرَافِيُّ: «واعلم أن قليل الأدب خير من كثير العمل». ولذلك قال رويم - العالم الصالح - لابنه: «يا بني اجعل عملك مِلْحًا وأدبك دَقِيْقًا» أي: استكثر من الأدب حتى تكون نسبته في الكثرة نسبة الدقيق إلى الملح في العجين وقال: «وكثير الأدب مع قليل من العمل الصالح خير من العمل مع قلة الأدب». لذا ينبغي للمسلم أن يُعرَفَ أنه مسلمٌ من حسن أدبه وزِيِّه، وتناسق هيئته، ورُوَاءِ مظهره. وفيما يلي نذكر بعض الآداب بإيجاز واختصار:

- إذا دخلت دارك أو خرجت منها، فلا تدفع بالباب دفعًا عنيفًا أو تدعه ينغلق لذاته بشدةٍ وعنفٍ؛ فإن هذا يُنافي اللطف الذي تتشرف بالانتساب إليه، بل أغلقه بيدك إغلاقًا رفيقًا، وقِسْ على ذلك باب السيارة والثلاجة والدولاب.
- إذا دخلت بيتك أو خرجت منه، فسلِّم على من فيه من أهلك، ذكرًا كان أو أنثى، بتحية المسلمين وعنوان الإسلام (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، ولا تَعْدِل عن هذه التحية إلى غيرها من (صباح الخير) أو (مرحبًا) أو نحوهما، فإن عدولك عنها إماتةٌ لها.
- إذا دخلت دارك، فأشْعِرْ من فيها بدخولك قبل وصولك إليهم، لئلا يرتاعوا بمفاجأتك، أو تكون كالمُتخوِّن الفاحص لهم.
- إذا كان بعض أهلك مُستقِرًّا في حجرته من دارك، وأردت الدخول عليه، فاستأذن، لئلا تراه على حالٍ لا يُحبُّ أو لا تُحبُّ أن تراه عليها، سواء كان من الحلائل أو المحارم أو غيرهم.
- إذا طرقتَ باب أخيك أو صديقك أو أحد معارفك، فدُقَّه دقًّا رفيقًا يُعرِّف بوجود طارق، ولا تَدُقَّه بعنفٍ وشدةٍ كدَقِّ الظلمة والزبانية فتروِّعَه وتُخِلَّ بالأدب.

- إذا طرقت باب أحدٍ فقيل لك: «من هذا؟»، فقل: «فلان» باسمك الصريح الذي تُعرفُ به، ولا تقل: «واحدٌ» أو «أنا»، أو «شخصٌ». فإن هذه الألفاظ لا تُفيد السائل معرفةً بالطارق، ولا يصح لك أن تعتمد على أن صوتك معروف عند من تطرق عليه، فالأصوات تلتبس، والنغمة تُشبه النغمة، والسَّمع في تمييز الأصوات يُخطئ ويُصيب.

- إذا زرت أحد إخوانك دون موعد، أو على موعد سابق، فاعتذرَ لك عن قبول زيارتك، فاعذُرْهُ. فإنه أدرى بحال بيته وملابسات شأنه؛ فقد يكون جَدَّ لديه مانعٌ خاصٌ، أو حصل عنده من الحرج ما لا يسمح له باستقبالك وقتئذٍ، فله أن يعتذر دون تحرُّج.

- عندما تستأذن على بيت غيرك لتدخل إليه، احفظ بصرك من أن يقع على داخل الدار أو عورةٍ فيها، فإن ذلك عيبٌ وإساءةٌ.

- عندما تزور بيت أخيك أو تدخل بيتك ـ كُن لطيفًا في مدخلك ومخرجك، غاضًّا طرفك وصوتك، واخلع حذاءك في محله، وصفَّ نعليك أثناء خلعهما، ولا تدعهما هكذا وهكذا، ولا تنس آداب لبس الحذاء وخلعه: تَلبس اليمنى أولًا، وتَخلع اليسرى أولًا. وقبل الدخول نظِّف نعليك مما علق بهما من آثار الطريق، فإن الإسلام دين النظافة واللطافة.

- لا تنازع مضيفك أو أخاك في المكان الذي يُجلسك فيه من منزله، بل لا تجلس إلا حيث يُجلسك، فلعلك إن جلست كما تريد تجلس في مكان فيه إطلال على عورة من عورات الدار، أو فيه إحراج لساكنيها. فعليك بامتثال ما يأمرك به مضيفك، واقبل ما يكرمك به أيضًا.

- إذا دخلت بيت أخيك، وأقعدك فيه، أو أنامك فيه، فلا تتفقَّده ببصرك تفقد الفاحص المُمَحِّص، بل غُضَّ بصرك أثناء قعودك أو منامك، قاصرًا نظرك على ما تحتاج إليه فحسب. ولا تفتح مغلقًا من خزانةٍ، أو صندوقٍ، أو محفظةٍ، أو صُرَّةٍ ملفوفةٍ، أو شيء مستورٍ، فإن هذا خلاف أدب الإسلام، ويُنافي الأمانة التي خوَّلك بها أخوك دخول بيته والمقام عنده. فاعرف لزيارتك آدابها، واسلك لحسن المعاشرة أبوابها.

- ينبغي أن تتخير الوقت الملائم للزيارة، وأن تجلس المدة المناسبة مع المَزُور، فلا تُطل ولا تُثقل، ولا تأتِ في وقت غير ملائم، كوقت الطعام أو النوم أو الراحة. وقِسْ على هذا إجراء المكالمات الهاتفية، فلا تتصل بأحدٍ في وقت غير ملائم، ولا تُطل ولا تُثقل.

- إذا تحدثت عند من تزوره، فلا تتحدث إلا بما يناسب المقام مع الإيجاز. وإذا كنت صغير القوم في المجلس، فلا تتكلم إلا إجابةً عن سؤالٍ يُوجَّه إليك، أو إلا إذا علمت أن حديثك سيقع منهم في موقعه، ويُسرُّهم ويُرضيهم. ولا تُسهب في الحديث، ولا تَغْفَلْ عن أدب المقام في هيئة جلوسك وأسلوب كلامك وخطابك.

- إذا دخلت مجلسًا فابدأ بالسلام على من فيه جميعًا. وإذا أردت المصافحة، فابدأ بالأفضل أو الأعلم أو الأتقى أو الأكبر، أو نحو هذا من الصفات المكرمة شرعًا. ولا تبدأ بأول من تراه في أول الصف، ولو كان من جهة اليمين إذا كان مفضولًا، وتدع الفاضل أو الأفضل. فإن لم تعرف أفضلهم، فابدأ بأكبرهم، فإن هذا لا يخفى شأنه غالبًا.

- إذا دخلت مجلسًا فلا تجلس بين جليسين، ولكن خذ ناحيتهما يمينًا أو يسارًا. ويستحب لمن أُجلِس بين اثنين، إذا فسحا له وأكرماه، أن يجمع نفسه ولا يَتَربَّع.

- إذا جلست بين اثنين، فلا تُلقِ بسمعك إلى حديثهما، إلا إذا كان غير سرٍّ ولا خاصٍّ بهما. فإن تطلُّعَك إلى ذلك عيب في أخلاقك وسيئةٌ ترتكبها. واعلم أنه لا يُسَوَّغُ لك أن تُسارَّ جليسك بحديثٍ إذا كنتم ثلاثةً، فإنك بهذا تُوقع على ثالثكما إيحاشًا وانقطاعًا، فتمرُّ بذهنه الخواطر البعيدة والقريبة، وهذا غير لائق بالمسلمين.

- اعرف للكبير قدره وحقه. فإذا ماشيتَه، فسِرْ عن يمينه متأخرا عنه بعض الشيء. وإذا دخلت أو خرجت، فقدِّمه عليك في الدخول والخروج. وإذا التقيت به، فأعطِه حقَّه من السلام والاحترام. وإذا اشتركت معه في حديثٍ، فمكِّنه من الكلام قبلك، واستمع إليه بإصغاءٍ وإجلالٍ. وإذا كان في الحديث ما يدعو للمناقشة، فناقِشْه بأدبٍ وسكينةٍ ولطفٍ، وغُضَّ من صوتك في حديثك إليه، وإذا خاطبتَه أو ناديتَه، فلا تنس تكريمه في الخطاب والنداء.

- قدِّم الكبير وذا الفضل في الضيافة والتكريم، فابدأ به قبل غيره، ثم بمن على يمينه في المجلس، عملًا واتباعًا لسنة النبي ﷺ.

- راع الأدب مع أبيك وأمك أتمَّ المراعاة، فإنهما أحق الناس بذلك. ولا يَتقدّمُ أحدٌ أباه إذا مَشى معه، ولا

يتقدمُه في القول في مجلسه، فيما يَعلمُ أنه أولى به منه. ويتجنب سَخَطَهُمَا بجهده، ويَسعى في مسرَّتهما بمبلغ طاقتِه. وإدخال الفرح عليهما من أفضل أعمال البر. وعليه أن يسرع إجابتهما إذا دعواه، فإن كان في الصلاة خففها وتجاوز فيها، وأسرع إجابتهما، ولا يقل لهما إلا قولًا كريمًا.

- إذا خرجت لاستقبال والد، أو قريب مُعظَّم، أو صديقٍ مماثل، أو رفيقٍ دونك، أو قَدمتَ من سفر عليهم، فلاحظ نظافة أطرافك، وحُسنَ هيأتك، وانتظامَ مظهرك اللائقِ بك إن كان هو دونك، واللائقِ به إن كان هو فوقك. فإنَّ العين تُسَرُّ بالطلعة الجميلة المتناسقة، والصورةِ المنسجمة، والنظافةِ المتكاملة. وحَذَارِ أن تتوانى في بعض مظاهرك، فإنَّ ذلك يُنقِصُ من لَذَّة فرحةِ اللقاء، ويُقَصِّرُ من استيفاء العين حقَّها ممن تحب وتُعِز.

- إذا كان بإمكانك اصطحابُ شيء من الهدية، للقادم عليهم، أو القادمين عليك، مُقابِلَ هديتهم، فافعل. فإن العين تتطلع إلى الطُّرْفة في بهجة اللقاء، وتتوقع إمتاعَ النفس وغَمْرَ الشعور بالسرور الظاهر والباطن، والهديةُ تُحقق ذلك.

- إذا نزل بك ضيف فاعرف آداب ضيافته، وارعَ حق إكرامه. ولا أعني بهذا أن تغالي في طعامه وشرابه، فالسُّنَّة الاعتدال في مثل هذا، والإكرام من غير سَرَف مطلوب. وإنما أعني: أن تُحسِن مجلسَه ومَقِيلَه ومَبِيتَه، وتُعَرِّفَه القبلة في منزلك، وتدله على موضع الطهارة والوضوء، وما يتصل بهذا وذاك.

- إذا قدَّمت لضيفك منديلًا للتنشيف من ماء الوضوء أو من غسل اليدين، فليكن نظيفًا غير الذي تستعمله أنت وأولادك. ولا بأس أن تُقرِّب إليه الطِّيبَ ليتطيَّب منه، والمرآة ليتجمل بالنظر إليها. ولتكن وسائل الطهارة التي يستعملها نظيفة، وقبل دخوله الحمام أَخْفِ ما فيه مما لا يحسن أن تقع عليه عين الضيف والغريب.

- راع راحة ضيفك أثناء النوم والاستراحة عندك، فجنِّبْه ضجيج الأولاد وصخب البيت ما استطعت، وأَبْعِدْ عن نظره ملابس النساء وما يتصل بحالهن، فإن ذلك من الحشمة المطلوبة، وهو أكرم لك وله. وتجمَّلْ له في غير تكلف، وقم في خدمته بذوق وتقدير، ولا تتخذ من حسن الصحبة والألفة بينكما مسوِّغًا للتساهل والتَّبَذُّل معه، فقد كان السلف إذا تزاوروا تجمَّلوا.

- وإذا نزلت ضيفًا على صديق أو قريب، فكن لطيفَ الظل، خفيف المؤونة والإثقال عليه، وراع ظروفه وأوقات عمله، وأوجِزْ ما استطعت من وقت ضيافتك عنده، فإن لكل إنسان ارتباطاتٍ وواجباتٍ ومسؤولياتٍ ظاهرةً وغيرَ ظاهرة، فارفق بمضيفك، وكن مساعداً له على القيام بشؤون نفسه وإنجاز أعماله وأداء واجباته. وعند وجودك في بيته لا تطلق بصرك فيه فاحصًا منقِّبًا، وخاصةً إذا دعاك إلى غير الغرفة المعدة للضيوف، فاقصُرْ بصرك فيها، فقد يكون فيها ما لا يحسن أن تراه، ولا تكن فُضُوليًّا في أسئلتك.

(متواصل)

شروط تدوين التاريخ

قال تاج الدين ابن السبكي:

«يشترط في المؤرخ: الصدق، وإذا نقل يعتمد اللفظ دون المعنى، وألا يكون ذلك الذي نقله أخذه في المذاكرة وكتبه بعد ذلك، وأن يسمى المنقول عنه. فهذه شروط أربعة فيما ينقله.

ويشترط فيه أيضا لما يترجمه من عند نفسه، ولما عساه يطول في التراجم من المنقول، ويقصر أن يكون عارفا بحال صاحب الترجمة علما ودينا وغيرهما من الصفات، وهذا عزيز جدا، وأن يكون حسن العبارة عارفا بمدلولات الألفاظ، وأن يكون حسن التصور حتى يتصور حال ترجمته جميع حال ذلك الشخص، ويعبر عنه بعبارة لا تزيد عليه ولا تنقص عنه، وأن لا يغلبه الهوى فيخيل إليه هواه الإطناب في مدح من يحبه والتقصير في غيره، بل إما أن يكون مجردا عن الهوى وهو عزيز، وإما أن يكون عنده من العدل ما يقهر به هواه ويسلك طريق الإنصاف.

فهذه أربعة شروط أخرى، ولك أن تجعلها خمسة؛ لأن حسن تصوره وعلمه قد لا يحصل معهما الاستحضار حين التصنيف، فيجعل حضور التصور زائدا على حسن التصور والعلم. فهي تسعة شروط في المؤرخ وأصعبها الاطلاع على حال الشخص في العلم؛ فإنه يحتاج إلى المشاركة في علمه والقرب منه حتى يعرف مرتبته»

طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢/ ٣٢)

مَجد العالِم في كتبه

أ. عمار عبد الحفيظ

كنت أسمع محاضرة الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة رحمه الله حول موضوع «كيف جمعتُ الكتب؟»، فتعجبت من الاهتمام البالغ بجمع الكتب لدى أهل العلم، ثم رأيت أيضا مظاهر ذلك حين مطالعتي لكتاب السيد مناظر أحسن كيلاني «نظام التعليم والتربية للمسلمين في شبه القارة الهندية»، فكان كل من الأمرين نقطة انطلاق لرحلة طيبة في بطون الكتب لأطلع على أخبار العلماء مع كتبهم، وشغفهم بها، حتى اجتمع لدي من ذلك ما يشدّ عزيمتي في طلب العلم إذا فترت، وتشفي غُلة طلاب العلم أمثالي إن أرادو زادا لرحلتهم العلمية.

ولا شك أن الكتبَ تحلّ من العالم محل الروح من الجسد والعافية من البدن؛ فإن الكتاب هو الرفيق الذي لا يملّ، والمَعين الذي لا ينضُب، وهو علامة على براعة العالِم في علمه وحفظه، فمن جمع الكتب واقتناها اقتناءً حسنا حاز عند العلماء المرتبة العليا والثناء الحسن؛ إذ حسن الانتقاء دليل على كمال عقل الرجل.

والزمخشري إذ قال: «التاجر مجده في كيسه، والعالم مجده في كراريسه»[1] فقد أوضح أهمية جمع الكتب واقتنائها، وتحصيلها، ومن العلماء من امتلك نوادر نفيسة، وأحرز نسخا متقنة حتى نال الرضا والقبول والثناء من ذوي عصره، وتنافس الناس في تحصيل كتبه، فهُواة الكتب كانوا يتهافتون على النسخ الخطّية الجيّدة المحرّرة، ويتنافسون في اقتنائها، ويغالون في أثمانها.

وقد بلغ بعضهم في شغفه وحرصه وحبّه للكتب وتعظيمه إياها موقعا أثّر ذلك في زوجه، فأصبحت الكتب أنكى من الضرّة عليها، وأشدّ إيلاما من الشقيقة في رأسها.

قال الزبير بن بكار: قالت ابنة أختي لأهلنا: خالي خير رجل لأهله، لا يتخذ ضرّة ولا يشتري جارية، قال: تقول المرأة: والله لهذه الكتب أشد عليّ من ثلاث ضرائر[2].

وللعلماء في اقتناء الكتب وتحصيلها والحرص عليها خير نموذج في الصحابة الكرام رضي الله عنهم، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال: «ما يرغّبني في الحياة إلا الصادقة والوهْط، فأمّا الصادقة فصحيفة كتبتها من رسول الله ﷺ، وأما الوهط فأرض تصدّق بها عمرو بن العاص رضي الله عنه كان يقوم عليها»[3].

وقد كان العلماء قديما وحديثا يحرصون أشدّ الحرص على التزوّد بالكتب وتحصيلها، فأورد هنا طائفة من أخبار العلماء في ذلك، راجيا من الله تعالى أن يديم هذه السنة في خَلَفِهم، وأن يجعلنا منهم.

فمن ذلك: عن موسى بن عقبة قال: وضع عندنا كريب حمل بعير من كتب ابن عباس رضي الله عنهما[4].

(١) هذه الكلمة ذكرها جار الله الزمخشري في كتابه القيم «الكلم النوابغ»، (٢٦)، وهي رسالة صغيرة المبنى، جليلة المعنى، جمع فيه الزمخشري كلمات نابغة، تستحق أن تعيَها خاطر كل طالب وعالم، ولو اقتناها لشَرُف في علمه، وبرز على أقرانه، ونبُل بين رفاقه، وهذه الكلمة وإن دلّت على معنى التأليف والكتب التي صنفها العالِم، إلا أني حملتها على المعنى الأعم؛ إذ المجد يظهر في كليهما. والله أعلم.

(٢) ذكره الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي، (١/ ١٠١، الرقم: ٦٠)، وقد ذكر غيره مثله عن الزهري ابن شهاب.

(٣) رواه الدارمي في مسنده، (٥١٣)، وفي سنده ليث بن أبي سُليم، وهو من رجال مسلم في المتابعات، ويغتفر في مثل هذا. والله أعلم.

(٤) أخرجه الخطيب البغدادي في تقييد العلم، (١٣٦).

وقال الشافعي رحمه الله: أنفقت على كتب محمد بن الحسن ستّين دينارا[٥].

وذُكِر في ترجمة أبي القاسم الطالقاني المعروف بكافي الكفاة، وكان من أبرز رجال عصره (ت: ٣٨٥هـ) أنه امتلك مكتبة حافلة بأنفس الكتب وأغلاها بلغ تعدادها -فيما حدّث به هو- مائتين وستة آلاف مجلد، ويقال: إنها كانت حمل سبعمائة بعير[٦]، وقيل: إن كتبه بلغت ٤٠٠ حمل بعير[٧].

وقال الموصلي في ترجمة علي بن يوسف، أبي الحسن القِفْطِي: إنه عالي الهمّة في تحصيل الكتب النفيسة واقتنائها، مبالغ في أثمانها، راغب في تصحيح أصولها، ولم يُرَ في زماننا من الوزراء حصّل مثل الكتب التي حصّلها وحازها[٨].

وقال الزكي المنذري في ترجمة محمد بن الحسين، أبي طاهر الجابري، المحلّي، الإمام: حصّل كتبا كثيرة وكان لا يمنعهما، وربّما أعارها لمن لا يعرفه[٩].

وفي ترجمة القاضي أبي سعد المبارك بن علي المخرِّمي أنه جمع كتبا Vكثيرة لم يسبق إلى جمع مثلها[١٠]. وكان إذا حصّل كتابا أنشد:

كم من كتاب تعبتُ في طلبه
وكنت من أفرح الخلائق به
حتى إذا متُّ وانقضى عمري
صار لغيري وعُدَّ من كتبه

وفي «إنباء الغمر بأبناء العمر» للحافظ ابن حجر العسقلاني: علي بن محمد العبدري المالكي ... حصّل كتبا كثيرة بخطّه[١١]. وكانوا يكتبون الكتب بأيديهم ولم يكن هناك طابعات كما في زماننا.

وفي طبقات صلحاء اليمن: شمس الدين يوسف بن أحمد المَنْبَهي، كان عابدا، عالما، صالحا، حصّل كتبًا كثيرة... توفّي سنة ستّ وأربعين وثمان مائة[١٢].

ومن طريف ما ذكر في الاعتناء بالكتب ما ذكر السيد مناظر أحسن الكيلاني ما معرّبه: حاصر (المرهتّة) بلدة أحمد نكر، فلم يطق إبراهيم خان مقاومته وفرّ منها، وكان رئيس الجند بها، فأحرق المرهتّة البلدة، وكان بها العالم ملا عبد النبي[١٣] من علماء القرن الثاني عشر، يقول وهو من مشاهدي هذه الوقعة: كنت صغيرا لم أبلغ الحلم، وكان والدي قاضي البلدة، فأمر خدمه بإيصال النسوة إلى القلعة، وأن يولوا العناية بالمكتبة دون أثاث البيت وأدواته، وجراء ذلك قد ضاع جميع أثاث البيت وأدواته[١٤]. فما أحرصهم على الكتب، حيث آثرها على أمتعة البيت ما يقارب حمل اثني عشر بعيرا.

فهذه نبذة يسيرة من تراجم الفحول، تتجلّى فيها عظمة الكتاب ووَقعُه في نفوسهم، ومن سبر كتب التراجم وجد فيها الكثير الكثير من هذا الباب، وما أصدق الجاحظ حيث قال: الكتاب نِعْم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغُرْبة، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والنزيل... وهو المعلّم الذي إن افتقرت إليه لم يحقّرك، وإن قطعت عنه المادّة لم يقطع عنك الفائدة... وهو الذي يزيد في العقل، ويشحّذه، ويداويه، ويهذّبه، وينفي الخبث عنه، ويفيد العلم[١٥].

فليحرص العالم أشدّ الحرص على اقتنائها، ولا يستغني عن ذلك بمتاع الدنيا وحطامها، فقد أنشد الإمام أبو محمد اليحيوي لنفسه، ولله درّه:

اجعل كتابك كالصندوق تفتحه
فتأخذ المال منه ثمّ تُطبِقه
فالمال يذهب فيما لا التذاذ به
والعلم يبقى ويبقى فيك رونقه
فيه الجمال على التأبيد تلبسه
وهو الذي للسان العيّ ينطقه[١٦]

(٥) ذكره الذهبي في تاريخه (٥/ ١٥٢).

(٦) ذكره محقق كتاب المحيط في اللغة للمترجم، (١/ ١٦)، ووثقت من مراجعه، وللمترجَم ترجمة مظلمة في معجم الأدباء، (٢/ ٦٦٢).

(٧) ذكره ابن المستوفي الإربلي في تاريخ إربل، (٢/ ٣٣٩).

(٨) كمال الدين الموصلي (ت: ٦٥٤هـ)، عقود الجمان في شعراء هذا الزمان، (٤/ ١٠).

(٩) ذكره الذهبي في تاريخه، (١٤/ ١١٩).

(١٠) انظر ترجمته في ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي، (١/ ٣٦٤، الرقم: ٦٨).

(١١) الحافظ ابن حجر، إنباء الغمْر بأبناء العمر، (٧/ ٨٩).

(١٢) عبد الوهاب البريهي السكسكي، طبقات صلحاء اليمن، (٧١).

(١٣) كذا اسمه في الأصل، وهو كما ترى ليس بجائز في الشريعة، ولكن مثل هذه الأسماء كانت شائعة عند المسلمين في الهند.

(١٤) السيد مناظر أحسن الكيلاني، نظام التعليم والتربية للمسلمين في شبه القارة الهندية، ٣٢، ملخصا، وبعض العبارات كانت بالفارسية فحاولت إصابة المعنى. والله المستعان.

(١٥) إبراهيم بن محمد البيهقي، المحاسن والمساوئ، (١).

(١٦) جمال الدين الوصابي، نشر طيّ التعريف في فضل حملة العلم الشريف، (٢١٦).

نداء العودة إلى مجالس العلم

أ. محمد سعد

يا لَهَفَةَ القلوب على الكتب! كم تاهت العزائم بين دفّتي الهواتف! لقد صارت الشاشات زينةً للعيون، وسرقةً للعقول، وفتنةً للنفوس... حتى كاد العلم يُدفن تحت وميضٍ لا يثمر ولا يثري.

لم يبقَ الهاتف مجرّدَ أداة اتصال، ولا وسيلة قضاء حاجات، بل صار سيدًا خفيًّا يسيطر على الوقت، ويشتت التركيز، ويُشغل القلب عن المحراب والكتاب، وعن العلم الذي يرفع صاحبه إلى علياء الفهم والحكمة. وما أقسى أن ترى طالب العلم يجلس بين دفّتي كتابٍ مفيد، فإذا بالبريق الصغير على شاشة الهاتف يشدّه، فيطوي الكتاب ، ويتركه جانبًا.

والجوال داءٌ مزمن، وسُكرٌ لذيذ مرير، يُغريك في أوله ثم يأخذ بيدك فلا تفلت منه. تهمّ بتركه، فإذا هو يتشبّث بك، وكأن بينك وبينه عهداً خفيًّا لا فكاك منه.

إن الأمر أشبه ما يكون بحكاية رجل نزل السيلُ في قريته مرة، فحمل في طريقه متاع الناس وأغراضهم، فاندفع بعض الماهرين في السباحة يغوصون ليلتقطوا ما يمكن إنقاذه من أشياء ثمينة، وبينهم رجل رأى من بعيد شيئًا يظنه لحافًا أو بطانيةً، فاندفع نحوه فرحًا بالغنيمة، حتى إذا مدّ يده إليه وجده دُبًّا هائجًا، فوثب عليه الدُبّ، فصار الرجل يصارع للنجاة منه فلا يستطيع. صاح به أحد أصحابه من بعيد: اترك اللحاف إن كان ثقيلًا! فأجابه وهو يكاد يغرق: أنا أريد تركه، لكنه لا يتركني!

وهكذا حالنا اليوم مع الجوال... نظن أننا نملكه، فإذا به يملكنا، نحسبه في أيدينا، فإذا نحن في قبضته، نتقلّب بين شاشاته كما يتقلّب الغريق بين أمواج البحر، لا يستطيع فكاكًا ولا خلاصًا.

حدثني أحد طلبة العلم، فقال: كنت أفكر في مسألة فقهية دقيقة، فأردت البحث عن جوابها في الكتب، لكنني فتحت الهاتف لأتفقد شيئًا صغيرًا، فإذا بالإجابة أمامي على شاشة الهاتف كما لو أن الجهاز قرأ ما في نفسي قبل أن أنطق بها! ارتعش قلبي، وشعرت بالخطر الحقيقي: أن العقل صار متعلّقًا بما يُقدمه الهاتف، أكثر من تعلقه بما ينهل من الكتب والمراجع الأصيلة.

هذه الواقعة ليست واقعة نادرة الوقوع، بل مثال بيّن لتأثير الأجهزة الحديثة على ملكة التفكير، وكيف صار الإنسان يلتجئ للسطور المضيئة بدل أن يستغرق في عمق الأوراق، فيمضي عمره بين لمسات سريعة وتوهجات عابرة.

وفي حادثة أخرى، رُوِيَ أن شابًّا كان يجلس في غرفته للتدبر والتأمل، وهو يظن نفسه في مأمن، فإذا بالكاميرا الأمامية تُفتح بالخطأ خلال مكالمة، فيظهر جزء مما حوله دون قصد، فأحدثت فزعًا وأثرت على سمعته بين زملائه وطلبة العلم.

لذا لا بد من أخذ أسباب الحيطة والحذر، فإن كل وسيلة تقنية يمكن أن تتحوّل إلى فتنة إذا لم تُحكم السيطرة عليها، وأن مراقبة النفس واجبة قبل متابعة الشاشات، ولقد روى الحاكم في تاريخه عن ابن عيينة ، حدثني عبد الله بن المبارك وكان عاقلا من أشياخ أهل الشام ، قال: «من أعطى أسباب الفتنة من نفسه أولا، لم ينج منها آخرا، وإن كان

جاهدا».

ويُروى أن أحد الشباب أثناء ركوبه الطريق انشغل بالمحادثات والصور المتجددة على هاتفه، فقصّرت انتباهه للحظة، وحدث ما لا يُحمد عقباه؛ كاد أن يصدم سيارة أخرى. هذه الحادثة تمثل جانبًا ماديًّا من المخاطر، بينما هناك الجانب المعنوي الأكثر وقعًا: انشغال القلب عن العلم، وانقطاع الفكر عن تأمل الأمور الجوهرية، وضياع ساعات العمر في لمسات عابرة.

لم يقتصر الأمر على الانشغال، بل امتد إلى فقدان العزلة المحمودة، والخلوة مع الكتاب، حيث صار طلبة العلم يُرسلون الرسائل، يردون على التساؤلات، ينشرون الصور، ويتبادلون المقاطع الرقمية، حتى اختلطت عليهم الأمور، وضعفت ملكة التركيز، وصار كثيرون منهم يحسبون أن العلم يُنال من السطور القصيرة والمنشورات العابرة.

وصارت الهواتف أداة للفتنة في العبادات أيضًا، فبعض الناس يُظهر صلاته وصدَقته ونواياه الحسنة للخلق عبر الصور والمنشورات، فيختفي الإخلاص الذي هو سر القبول عند الله، كما أصبح سببًا مباشرًا في ضياع العلم والوقت، وانكسار وقار العلماء، وتحصيل علم سطحي وإضاعة العمق المعرفي؛ فالسطور المضيئة على الشاشة تلهينا عن المعاني الثمينة، وعن العبر والدروس التي تُستخلص من كتب الأئمة والسلف الصالح، وبدل أن يُهذب العقل، صار يُلهيه، وينمي الرغبات والشهوات، ويجعل المرء فريسة للاضطراب والفتنة.

ومع ذلك، لا يمكن إنكار النفع في بعض الأحيان، لكن الواجب ضبط الاستخدام، وحفظ النفس من الانغماس المُميت، لكيلا يكون الهاتف سببًا في ضياع الأوقات، وخسارة الفوائد، وإليكم بعض الحلول لضبط استعمال الجوال بين طالب العلم والعامّة.

١ - تحديد أوقات الاستخدام محددة، وإيقاف الجهاز أثناء الدراسة والعبادة والنوم.

٢ - فصل الهاتف المخصص للعلم عن الهاتف الترفيهي.

٣ - إغلاق الإشعارات إلا للضروريات.

٤ - بدء اليوم وانهاؤه بالكتاب والذكر، لا بالهاتف.

٥ - مراقبة النفس: فلا تفتح التطبيق إلا لحاجة محددة، وإذا قُضيت أغلقه فورًا.

٦ - تعهد بالقراءة الورقية اليومية: خمس صفحات أو عشر، ليظل العقل والقلب مرتبطين بالمصادر الأصيلة.

٧ - الحيطة من تصوير ذوي روح ونشره، خاصة في الأماكن الخاصة والخلوات.

٨ - تخصيص يوم أو ليلة بلا جوال لتجديد الحواس واسترجاع التركيز.

٩ - تجنبُ التعلق المفرط به، وإدراك أن الهاتف أداة وليس سيدًا.

١٠ - يا طالب العلم، تذكّر أن العلم لا يُعطِيك بعضه حتى تعطيه كلّك. فهل أعطيت؟ أو ما زلت متعلقا بقلبك بشاشةٍ تسرق عمرك دون أن تشعر؟

اللهم رُدّنا إلى الكتاب والعلم ردًّا جميلاً، واصرف عن قلوبنا فتنة الجوال، واجعلْه في أيدينا طاعةً، ولا تجعله في قلوبنا بلاءً. آمين.

«من صمت نجا»

عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعته يقول: «خمس لهن أحسن من الدهم الموقفة:

– لا تتكلم فيما لا يعنيك؛ فإنه فضل، ولا آمن عليك الوزر.

– ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعا؛ فإنه رب متكلم في أمر يعنيه، قد وضعه في غير موضعه فعنت.

– ولا تمار حليما ولا سفيها؛ فإن الحليم يقليك، وإن السفيه يؤذيك.

– واذكر أخاك إذا تغيب عنك مما تحب أن يذكرك به، وأعفه عما تحب أن يعفيك منه.

– واعمل عمل رجل يرى أنه مجازى بالإحسان، مأخوذ بالإجرام.

(الصمت لابن أبي الدنيا، الرقم: ٤١١)

إلى الطلاب

الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله

زرت من أيّام صديقاً لي قبيل المغرب، فجاء ولده يسلّم عليّ؛ وهو مصفرّ اللّون بادي الضّعف؛ فقلت: خيراً إن شاء الله؟

قال أبوه: ما به من شيء؛ ولكنّه كان نائماً.

قلت: وماله ينام غير وقت المنام؟

قال: ليسهر في اللّيل؛ إنّه يبقى ساهراً كلّ ليلة إلى السّاعة الثّانية.

قلت: ولم؟ قال: يستعدّ للامتحان.

قلت: أعوذ بالله! هذا أقصر طرق الوصول إلى السّقوط في الامتحان.

لقد دخلت خلال دراستي امتحانات لا أحصي عددها؛ فما سقطت في واحد منها؛ بل كنت فيها كلّها من المجلّين السّابقين، وما سهرت من أجلها ساعة؛ بل كنت أنام أيّام الامتحان أكثر ممّا أنام في غيرها.

فعجب الولد وقال: تنام أكثر؟

قلت نعم، وهل إلا هذا. أفرأيت رياضيّاً؛ ملاكماً، أو مصارعاً؛ يهدّ جسده ليالي المباراة بالسّهر، أم تراه ينام، ويأكل، ويستريح؛ ليدخل المباراة قويّاً نشيطاً؟

قال: والوقت؟

قلت: إنّ الوقت متّسع، وإنّ ساعة واحدة تقرأ فيها وأنت مستريح؛ تنفعك أكثر من أربع ساعات تقرأ وأنت تعبان نعسان؛ تظنّ أنّك حفظت الدّرس وأنت لم تحفظه.

قال: إن كانت هذه النّصيحة الأولى فما الثّانية؟

قلت: أن تعرف نفسك أوّلاً، ثمّ تعرف كيف تقرأ.

فإنّ من الطلاب من هو بصريّ؛ يكاد يذكر في الامتحان صفحة الكتاب ومكان المسألة منها، ومنهم من هو سمعيّ يذكر رنّة صوت الأستاذ.

فإن كنت من أهل البصر فادرس وحدك، وإن كنت من أهل السمع فادرس مع رفيق لك مثلك، واجعله يقرأ عليك.

قال: وكيف أعرف نفسي؟

قلت: أنا أكتب عشر كلمات لا رابطة فيها (مثل: كتاب، مئذنة، سبعة عشر، هارون الرّشيد...)

وأقرؤها عليك مرّة واحدة، ثمّ تكتب أنت ما حفظته منها.

وأكتب مثلها وأطلعك عليها لحظة، وتكتب ما حفظته منها.

فإن حفظت بالسّمع أكثر فأنت سمعيّ وإلا فأنت بصريّ.

قال: والنّصيحة الثّالثة؟

قلت: أن تجعل للدّراسة برنامجاً تراعي فيه تنوّع الدروس.

وأحسن طريقة وجدتها للقراءة أن تمرّ أوّلاً على الكتاب كلّه مرّا سريعاً على أن يكون القلم في يدك، فما هو مهمّ خططت تحته خطّاً والشّرح الذي لا ضرورة له تضرب عليه بخطّ خفيف والفقرة الجامعة تشير إليها بسهم.

ثمّ يأتي دور المراجعة، فتأخذ الكتاب معك فتمشي في طريق خال وتستعرض في ذهنك مسائل الكتاب واحدة تلو الأخرى؛ تتصوّر أنّك في الامتحان وأنّ السّؤال قد وجّه إليك فإذا وجدته حاضراً في ذهنك تركته، وإلا فتحت الكتاب فنظرت فيه نظراً تقرأ فيه الفقرات والجمل الّتي قد أشرت إليها فقط فتذكر ما نسيته، وإذا وجدت أنّك لا تذكر من المسألة شيئاً أعدت قراءة الفصل كلّه.

والرّابعة: ألا تخاف؛ والخوف من الامتحان لا يكون من الغباء، ولا التّقصير، ولا الجبن؛ ولكنّ الخوف من شيء واحد وهو منشؤه وسببه.

ذلك أنّ بعض الطّلاب ينظرون إلى الكتاب الكبير والوقت القصير الباقي ويريدون أن يحفظوه كلّه في ساعة فلا يستطيعون؛ فيدخل الخوف عليهم من أن يجيء الامتحان وهم لم يكملوا حفظه.

ومثلهم مثل الّذي يريد أن يمشي على رجليه من (المزّة) إلى المطار ليدرك الطّيّارة وما معه إلا ساعتان، فإن

قال لنفسه: كيف أصل؟ أو ركض كالمجانين فتعب حتّى وقع، ولم يصل أبداً. وإن قسم الوقت والخطا وقال لنفسه: إنّ عليّ أن أمشي في الدّقيقة مئة خطوة فقط؛ سار مطمئنّاً ووصل سالماً.

والخامسة: أنّ بعض الطلاب يقف أمام قاعة الامتحان يعرض في ذهنه مسائل الكتاب كلّها، فإذا لم يذكرها اعتقد أنّه غير حافظ درسه واضطرب وجزع.

كم تعرف من أسماء إخوانك وأحبّائك؟ هل تستطيع رأن تسردها كلّها سرداً في لحظة واحدة؟

لا؛ ولكن إذا مرّ الرّجل أمامك أو وُصف لك ذكرت اسمه.

فغيابها عن ذهنك ليس معناه أنّها فقدت من ذاكرتك.

والسّادسة: أنّك كلّما قرأت درساً استرحت بعده، أو انصرفت إلى شيء بعيد عنه؛ ليستقرّ في ذهنك.

وإنّ إعادة القراءة للدّرس بعد الفراغ منه مرّات، كمن يأخذ صورة بالفوتوغراف، ثمّ يأخذها مرّة ثانية من غير أن يبدّل اللّوحة، أو يدير الفلم؛ فتطمس الصّورتان.

والسّابعة: أنّ عليك أن تستريح ليلة الامتحان وتدع القراءة؛ تزور أهلك، أو تتلهّى بشيء يصرفك عن التّفكير في الامتحان، وأن تنام تلك الليلة تسع ساعات أو عشراً إذا استطعت، ولا تخش أن تذهب المعلومات من رأسك؛ فإنّ الذّاكرة أمرها عجيب. إنّ ما ينقش فيها في الصّبا لا ينسى.

وأنا أنسى والله اليوم ما تعشّيت أمس؛ ولكنّي أذكر ما كان قبل أربعين أو خمس وأربعين سنة كأنّي أراه الآن.

وأنت تبصر في التّلفاز فلماً كنت شاهدته منذ عشر سنين فتذكره؛ ولو سألتك عنه قبل أن تدخل لما عرفته.

والثّامنة: أن تعلم أنّ الامتحان ميزان يصحّ حيناً، وقد يخطئ حيناً، وأنّ المصحّح بشر، يكون مستريحاً يقرأ بإمعان، وقد يتعب فلا يدقّق النّظر، وأنّه ينشط ويملّ ويصيب ويخطئ.

وقد جرّبوا مصحّحاً مرّة؛ أعطوه أوراقاً، فوضع لها العلامات والدّرجات، ثمّ محوا علاماته وجاؤوه بها مرّة ثانية؛ فإذا هو يبدّل أحكامه عليها، وتختلف درجاته في المرّتين أكثر من عشرين في المئة.

وطلبوا من مصحّح مرّة أن يكتب هو الجواب الذي يستحق العلامة التامّة، فكتبوه بخط آخر، وبدّلوا فيه قليلاً، وعرضوه عليه، فأعطاه علامة دون الوسط.

والمصحّح ليس في يده ميزان الذّهب، وقد يتردّد بين السّتّين والسّبعين، وقد يكون في هذه العلامات العشر سقوط الطّالب أو نجاحه. فما العمل؟

عليك أن توضّح خطّك، فإنّ سوء الخطّ وخفاءه ربّما كان السّبب في نقمة المدرّس وغضبه، فأساء حكمه على الورقة فأسقطها. وأن تكثر من العناوين، وأن تقطّع الفقرات وتميّزها، وأن تجتنب الفضول والاستطراد.

وقد يستطرد التّلميذ فيذكر أمراً لم يطلب منه، يريد أن يكشف به عن علمه، فيقع بخطيئة تكشف جهله؛ فتكون سبب سقوطه.

هذا الّذي عليك، وهذا هو الواجب في الامتحان وغيره.

على المرء أن يسعى ويعمل؛ ولكن ليس النّجاح دائماً منوطاً بالسّعي والعمل.

يمرض اثنان، فيستشيران الطّبيب الواحد، ويتّخذان العلاج الواحد، ويكونان في المشفى الواحد، في الغرفة الواحدة، وتكون معاملتهما واحدة؛ فيموت هذا ويبرأ هذا؛ فلم؟ من الله.

ويفتح اثنان متجرين، ويأتيان بالبضاعة الواحدة، ويتّخذان طريقة للبيع واحدة؛ فيقع هذا على صفقة تجعله من كبار الأغنياء، ويبقى ذلك في موضعه؛ فلم؟ من الله.

وأنا لا أقول لأحد أن يترك السّعي. السّعي مطلوب، وعلى التّلميذ أن يقرأ الكتاب كلّه حتّى الحاشية الّتي لا يهتمّ غيره بها؛ إذ ربّما كان السّؤال منها، وبعد ذلك يتوجّه إلى الله فيطلب منه النّجاح.

وهذه خاتمة النّصائح؛ ولكنّها أهمّها.

أيّها الطّالب، إذا أكملت استعدادك وعملت كلّ ما تقدر عليه فتوجّه إلى الله، وقل له:

يا ربّ، أنا عملت ما أستطيعه، وهناك أشياء لا أستطيعها؛ أنت وحدك تقدر عليها، فاكتب لي بقدرتك النّجاح، ولا تجعل ورقتي تقع في يد مصحّح مشدّد لا يتساهل، أو مهمل لا يدقّق، أو ساخط، أو تعبان لا يحكم بالحقّ.

وانظر قبل ذلك في نفسك، فإن كانت على معصية، أو تقصير؛ فقوّمها، ودع التّقصير.

وليست هذه الوصفة من عندي؛ ولكنّها وصفة وكيع شيخ الشّافعيّ رحمهما الله تعالى:

شَكَوْتُ إلَى وكيعٍ سُوءَ حفظِي
فأرشدَنِي إلى تركِ المَعَاصِي
وقَال بأنّ هذَا العِلم نُور
ونور الله لا يُهْدَى لعَاصِي

نُورٌ في الطَّرِيقِ

أ. أبو سالم الأنصاري

لم أكن أظن أن زيارتي الأسبوعية إلى السوق المركزي في كراتشي ستصير جزءا من دروسي في الحياة، كنت أذهب كل جمعة لشراء حاجيات البيت وبعض الكتب القديمة، وهناك عند طرف الشارع المزدحم، بين عربات الخضار والفواكه، وصيحات الباعة، رأيته أوّل مرّة...

كان فتى نحيل القوام، مشرق الوجه، تعلو رأسَه طاقيةٌ بيضاء، يلبس ثوبا باهت اللون، لكن نظافته تشي بعناية، رغم التعب كان يبتسم لزبائنه ولا ينسى أن يسلِّم بأدبٍ على كل من يمر أمامه، لم يكن يبدو أنه من الباعة المحترفين؛ فإنه كان يقف خلف عربة أكبر من حجمه قد اختفى وراءها نصف جسده النحيل، وقد كتب على لافتتها الخشبية:

« كُشْك حمزة... للفواكه الطازجة... بالدعاء الطيب»

أثار فضولي غرابةُ مظهره الذي لم يكن يتكيف مع بيئة السوق فتقدمت نحوه؛ لأطلع على أحواله، فاقتربت متظاهرا أنني أريد أن أشتري منه بعض التفاح... لبَّى طلبي مبتسما وبدأ بيديه الناعمتين يضع لي التفاح في كيس، فرأيت أنَّه ما كان يتناول إلا أحسن التفاح وأنضجه، فازددت إعجابا به... بل استغرابا منه! فقلت له سائلا:

- اسمك حمزة؟؟

- «نعم، يا عم، اسمي حمزة...حمزة عمر» وخيَّم صمت قصير عندما ذكر اسم أبيه «عمر».

- لماذا كتبت على اللوحة «بالدعاء الطيب» ؟ استفسرته متعجبًا .

- «لأنَّني أحتاج إلى دعواتكم يا عم» أجاب ببساطة.

- هل تحضر هنا كل يوم؟

- «لا، يا عم، أعمل يوم الجمعة فقط».

فازدادت شخصيته تعقُّدا في نظري بهذا الجواب... يعمل يوما واحدا فقط!! وماذا عسى أن يربح في هذا الوقت القليل؟ ولكنني لم أوجه إليه مزيدا من الأسئلة، ولم أزد أن دعوت له بالخير والبركة ودفعت إليه ثمن التفاح وعدت إلى منزلي، ولكن صورة حمزة ارتسمت في مخيِّلتي... ومعها عشرات من الأسئلة..! وعقدت العزم أنني سأزوره كل يوم الجمعة... أشتري منه الفواكه، و أستطلع أحواله بدقة... ولم يمض شهر كامل حتى قويت صلتي به وعرفت فيما عرفت عنه خلال زياراتي له...: أنه طالب علم يدرس في مدرسة دينية قريبة من السوق، وقد توفي والده قبل سنتين في حادثة، وكان يعمل في العطلة فقط ليدفع رسوم الدراسة ويُعيل أمَّه وأخته.

مرت الأسابيع وكنت أراه كل جمعة في المكان نفسه لا يشتكي ، لا يتأفف، المطر يهطل، والشمس تلسع الأرض، وهو هناك يبيع ويبتسم، كنت أجلس أحيانا على مقربة منه لأحتسي كوب شاي من بائع مجاور، أراقبه بصمت، وأتعجب من ذلك النور الهادئ في وجهه.

سألته مرة:

- ألا تتعب من هذا ؟ المدرسة والعمل معا؟

ضحك وقال:

- «أتعب ولكن أبي رحمه الله كان يقول: إن الطريق إلى الحلم لا يكون مُعَبَّدا بالراحة، بل بالنية الصادقة والعمل المتواصل». حين نطق بكلمة «أبي» رأيت ظلال حزن على وجهه... ثم أضاف:

- «توفي قبل عامين لكنه ترك لي ما هو أعظم من المال... ترك لي إيماني بأن الله لا يضيع أجر المحسنين».

اتفق بعد ذلك أن تعينت على وظيفة في شركة بإسلام آباد، فاضطررت أن أنتقل إليها لعدة سنوات، وانقطعت عني أخبار حمزة تماما، وعدتُ بعد ثلاثة أعوام إلى كراتشي، ولما ذهبت إلى السوق يوم الجمعة... بحثت عن حمزة فلم أجده، سألت عنه بائع الشاي فقال:

- ذلك الفتى؟ ما شاء الله، أنهى دراسته في المدرسة وهو مدرس الآن في نفس المدرسة، يزورنا أحيانا لكنَّ وقته ضيق».

ابتسمت بفخر غريب كأنني عرفت إنجاز ابني... لا فتى عابر من السوق... وأردت أن أزوره، فاشتريت له بعضَ الفواكه وذهبت إلى مدرسته، وهناك لقيته من جديد... كان يجلس في ساحة المدرسة يعلِّم مجموعة من الصبيان الصغار...!

حمزة نفسه... نور هادئ ... ابتسامة جميلة... ولكن فيها وقار جديد!

حين رآني نهض مرحِّبا بحرارة:

- عمي ! سبحان الله، ما توقعت أن أراك هنا!

تعانقنا وصافحته بحفاوة. سألته عن حاله، فقال:

- «أكملت دراستي، والحمد لله، والآن أدرِّس في هذه المدرسة... وما زلت أعمل في السوق أيام الجمعة فإنني أعتبره جزءا من حياتي لا عيبا فيها».

ضحكت وقلت: «يبدو أن السوق لم يغادرك».

ابتسم وقال:

- «هو مدرستي الثانية يا عم، هناك تعلَّمت الصبر، وتعلَّمْت كيف يكون التوكل عملا لا كلمة».

بعد سنوات سمعت اسمه يتردد بين الناس الشيخ حمزة الذي صار خطيبا في مسجد كبير، ويتولى مع ذلك إدارة مشروع خيري لتعليم الأيتام والفقراء!.

وحضرت في خطبة له... كان صوته قويا وهادئا وسمعته يقول:

- «ليس الفقر ما يمنع المرء من طلب العلم؛ بل الوهن في العزيمة هو الذي يُقعده، كل من صدق الله في نيته فتح الله له طريقه ولو من صخر».

لم أتمالك نفسي بعد الخطبة، فتقدمت إليه أهنئه، وحين رآني اتسعت عيناه كمن رأى ماضيه القديم، تعانقنا بحفاوة ثم جلسنا بعد الصلاة على عتبة المسجد نتبادل الذكريات. حدثني عن السنوات التي عمل فيها في السوق، وعن الليالي التي كان يراجع فيها دروسه تحت ضوء خافت، وعن لحظات الضعف التي كاد أن ينهار فيها، لكنه تذكر صبر أمه ونصيحة أبيه فاستقام.

ثم قال بصدق مؤثر:

- «تعلمت أن العمل الشريف لا ينقص من قدر العالم، وأن اليد التي تمسك القلم قادرة أن تمسك المطرقة أيضا، المهم ألا تترك ما أنت مؤمن به ولو كنت وحيدا».

غادرت المسجد وأنا أشعر أني رأيت الدرس في الاستقامة والصبر، كنت أظن أن الناس العظماء يولدون في ظروف استثنائية، لكن حمزة علمني أن العظمة تولد في قلب كل من يصبر، ويؤمن بأن الجهد الصادق لا يضيع.

منذ ذلك اليوم، كلما أمرّ بالسوق المركزي، أبتسم حين أرى لافتة صغيرة ما زالت معلقة في أحد الأكشاك القديمة، مكتوب عليها بخط ضئيل..:

« كُشْك حمزة... للفواكه الطازجة... بالدعاء الطيب».

فأدرك أن بعض الدعوات لا تذبل ... لأنها كانت تروى بعرق الصادقين.

غرقت سفينة ونجا سفينة

أ. حذيفة رفيق

كانت السفينة تمخُر عُباب البحر في سكونٍ وطمأنينة، والهواءُ عليلٌ ساكن، والركابُ يتمتعون بهدوء الجوّ، ورِقَّةِ النسيم، وبأمواج البحر اللطيفة الهادئة، ثم لم يلبثوا إلا أن هَبّت عاصفةٌ عاتية، وبدأت الأمواج تعلو رويدًا رويدًا، وأخذت تهيج وتموج، حتى اشتدّ اضطرابها، فتلاطمت وتصارعت، وتضاربت وتصادمت، وأخذت السفينة تتأرجح كالأرجوحة؛ تارةً ترتفع في عنان السماء، وتارةً تهبط، تعالت صيحات الركاب في أرجاء السفينة، اعترى الركّاب رُعبٌ شديد، رعْبَ من يَرَى الموتَ ماثلًا أمام عينيه، وقد أيقنوا أنّ مصيرهم الغرق، وأنهم لن يعيشوا بعد هذا إلا يسيرًا.

أخذت الأمواجُ تضرب السفينةَ بعنف، حتى جاءت موجةٌ هائلة فحطّمت من جانبها ألواحًا، ثم أعقبتها أخرى فكسرت ما تبقى تمزيقًا، حتى تشتّت ألواحها وتفتّت، وتبعثرت في لجّة البحر، وغرق الركاب جميعًا، إلّا من شاء الله أن ينجو منهم.

وكان من بين الناجين مسافرٌ تمسّك بلوحٍ خشبيٍّ، وظلّ يُصارع الأمواجَ حتى ألقت به على شاطئ جزيرةٍ قريبة، وعندما بلغ الشاطئ شكر الله على أنه أحياه بعد أن أيقن بموته، فكأنما رُزق حياة جديدة.

غير أنّ فرحته لم تكتمل، إذ لم يكد يستريح من عناء البحر حتى رأى أسدًا مقبلًا نحوه، لا يقصد إلا إيّاه، ولا يُرجى من الأسد إلا السُّوء، فكأنه نجا من مهلكةٍ ليقع في أعظمَ منها، فقام وجمع ما تبقّى له من قوّة، وثبّت جأشه، ثم خاطبه قائلًا: «يا أيها الأسد، إنّي خادمُ رسولِ الله ﷺ وصاحبُه، فدلّني على الطريق حتى أخرج من هنا».

فما كان من الأسد إلا أن تولّى عنه، ثمَّ حرَّك ذيلَه والتفت إليه التفاتةً يسيرة كأنه يشيرُ إليه أن يتبعَه، فسار المسافر خلفه، والأسدُ أمامه، يشُقّ له الطريقَ بين الأشجارِ الكثيفةِ، والأغصانِ المتدلية، حتى انفسحت له السبيل، وانقشع عنه ظلامُ الغابة، ولمّا بلغا حافّة المخرج توقّف الأسد، ثم التفت إلى المسافر وألقى عليه نظرةَ وداع، وولّى مدبرًا إلى ناحيةٍ أخرى، وخلّى له الطريق آمنًا.

أتدرون من ذلك المسافر الذي قال للأسد: «يا أيها الأسد، إنّي خادمُ رسولِ الله ﷺ وصاحبُه»؟

لقد اختلفت الروايات في اسمه، فقيل: عمير، وقيل: مهران، وقيل: رومان، وعبس، وأبو عبد الرحمن، وأبو البختري، غير أنّه اشتهر باسمٍ آخر هو أحبّ الأسماء إليه، وهو الاسم الذي لقّبه به رسول الله ﷺ بنفسه.

فقد كان يومًا مع النبي ﷺ في سفر، وكان كلما ثقل متاعُ أحدٍ من الصحابة حمّله على ظهره، حتى حمل أشياء كثيرة، فأُعجب النبي ﷺ بصبره وجلده واحتماله، وهمّته في خدمة إخوانه. فقال له: «أنتَ سفينةٌ!».

ومنذ ذلك اليوم عُرف بهذا الاسم، وأحبَّه لنفسه حبًّا شديدًا، حتى إذا سُئل عن اسمه فيما بعدُ، فكان يقول: «ما أخبرُك، سَمَّانِي رَسُول اللهِ ﷺ سفينة، فلا أريد غيره».

وكان عبدًا لأم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، أعتقتْه على شرط أنه يخدم النبي ﷺ طيلة حياته، فخدمه ما دام بين أظهرهم.[1]

(١) انظر: أسد الغابة: ٢/ ٢٥٩، ط: دار الفكر، الاستيعاب: ٢/ ٦٨٤ رقم: ١١٣٥، دار الجيل، بيروت، بتصرف.

مدرسة ابن عباس رضي الله عنهما

مؤسسة علمية دينية إسلامية تسعى أن تكون قدوة لمدارس العالم، ولا سيما في شبه القارة الهندية في تدريس العلوم الدينية باللغة العربية الفصحى، لإعداد علماء دعاة يتزودون بالقرآن والسنة و يتحلون بالبساطة والمجاهدة لنشر الهداية في أنحاء العالم.